قصـــة أيـــوب
فى
التوراة والإنجيل والقرآن

تأليف الدكتور الشيخ
أحمد حجازى أحمد السقا
من كلية أصول الدين

الناشر
مكتبة الإيمـــان
بالمنصورة

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

السقا ، أحمد حجازي .

قصة أيوب فى التوراة و الإنجيل و القرآن / تأليف أحمد حجازي

السقا . ـ ط١ . ـ المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

١٧٢ص ، ١٧x ٢٤سم .

تدمك 2 ـ 267 ـ 290 ـ977

١ـ قصص الأنبياء .

أ ـ العنوان .

٢٢٩,٥

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٨٣٠٨



بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم للكتاب

بقلم
السيد الأستاذ هشام محمد طلبه

د. أحمد حجازى السقا غنى عن التعريف فى مجاله ؛ فهو أحد أساطين علم مقارنة الأديان عندنا فى مصر . وما من عالم أو باحث فى هذا المجال إلا وتتلمذ على أعماله فى رسالته للدكتوراه ، وموضوعها : « البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل » وفى كتبه التى منها : « أقانيم النصارى » ، « المَسِيّا المنتظر » وغير ذلك كثير . ولم أكن أحلم أننى سألقاه . ناهيك أن أقدم لعمل من أعماله . ولولا إلحاحه علىَّ ، لما أقدمتُ على ذلك ؛ استصغاراً لشخصى ، فأنا مازلت باحثاً أحبو فى هذا المجال . وإن صدرت لى ثلاثة أعمال . كان جُل اهتمامى فيها لفت النظر إلى شرائح أخرى عديدة من كتب أهل الكتاب . عدا التوراة والإنجيل (ما اصطلح على تسميتها عند أهلها « بالكتاب المقدس » بعهديه القديم والحديث) ، وهذه الكتب يعتدّ بها عندهم ، وإن لم يتعبّد بها . والكتاب الذى بين أيدينا الآن ، «قصة أيوب فى التوراة والإنجيل والقرآن » يذكرنا بأعمال المؤلف الأولى التى ذكرناها آنفا والتى نهل منها العلماء والقراء .

والجديد الذى فى هذا العمل : هو استعانته بمخطوطات البحر الميت فى هذه القصة ، وهى مخطوطات غاية فى الأهمية ، اكتشفت فى أواسط القرن العشرين . وسيعجب القارئ الكريم حين يجد توافقاً شديداً بين هذه النصوص والقرآن الكريم . والعجيب : أن نص التوراة الحالية قد يختلف فى أمر مع مثيله فى مخطوطات البحر

الميت . فتجد النّص القرآنى تارة يوافق فى المعنى نص التوراة وتارة أخرى يوافق نص المخطوطات المذكورة أو غيرها . وهذا يذكرنا بقوله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾ صدق الله العظيم .

وهذا من إعجاز هذا الكتـاب العزيز .

ومن محاسن هذا العمل الذى نحن بصدده : أنه حين يضع النص القرآنى مقابلاً للنص الكتابى يتبين مدى البون الشاسع . لا فى قوة البلاغة فحسب ، ولكن ـ وذلك هو الأهم ـ مدى مصداقية ومنطقية النص القرآنى . خاصة لو عزلنا تلك التفسيرات الخاطئة التى تبنتها الإسرائيليات .

وصدق الله العظيم فى قوله : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا** ﴾ أى تناقضاً وعدم منطقية .

والحق أن القارئ لو أتيح له أن يقرأ قصص الأنبياء الآخرين فى سائر كتب أهل الكتاب ؛ لوجد عجباً . إذ لا يكاد يخلو سفر من هذه الأسفار من شىء مما جاء به محمد ﷺ . وهذه الكتب والمخطوطات لم يدونها أصحابها فى عصر واحد. ولا بلغة واحدة ، ولا هى تتبع طائفة واحدة . وكان أغلبها مخفياً أو غير مكتشف . وكانت النسخ من كل كتاب قليلة ؛ لأن النسخ كان يدوياً ـ وقد حرق كثير من الكتب بأمر من الأباطرة ـ ولأن حجم الكتب كبيراً حينذاك .

فأنّى لهذا النبى الأمى ﷺ بهذا العلم كله ؟

وما أحسب المؤلف وغيره من علماء المسلمين فى هذا المجال قد ابتغى شيئاً وراء ما ذكر فى الآية التالية : ﴿ **ليستيقنَ الذين أوتو الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا** ﴾ صدق الله العظيم .

هشام محمد طلبه

البحر الكبير

نهر الفرات

آرام

عوص

بابل

إرك

خريطة لبيان موقع أرض عوص حيث عاش أيوب

فهرس كتاب قصة أيوب

كلمة

للسيد الأستاذ الكبير أنيس منصور

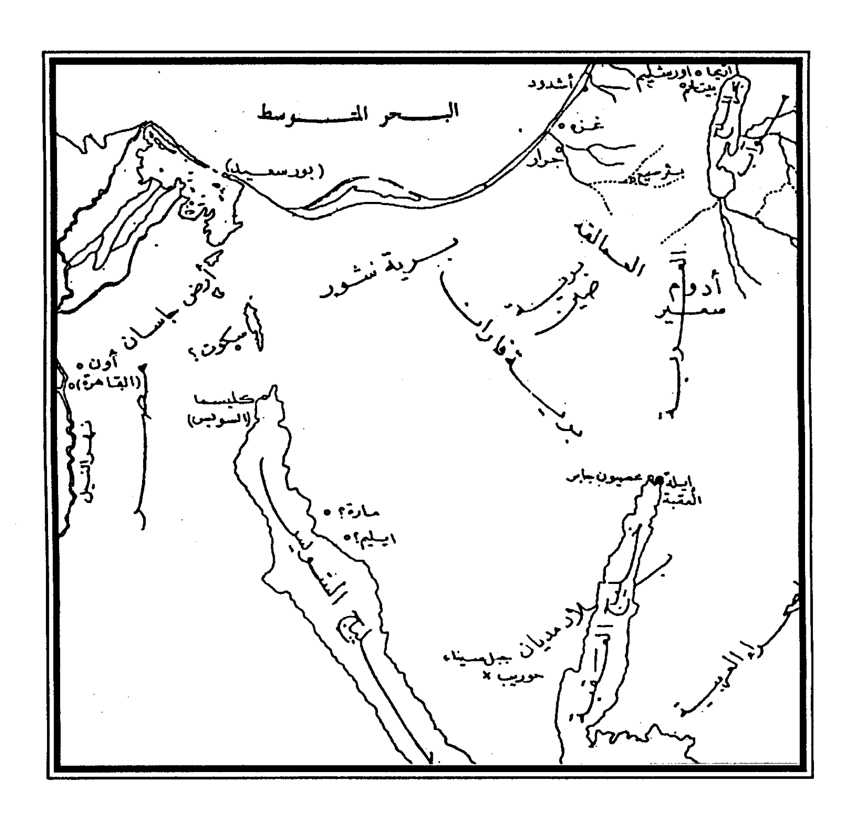
« أرسل السيد مناحم بيجن خطاباً طويلاً إلى الرئيس السادات يشكو من أحاديث الشيخ متولى الشعراوى . وجاء فى إحدى الرسائل أنه يهاجم اليهود لا فى إسرائيل ، وإنما فى كل العالم ، مما يؤدى إلى نشر كراهية اليهود ، وتهديد السلام بين البلدين . وفى رسالة أخرى تضايق منها الرئيس السادات . فكلام بيجن معناه أنه قد ضاق بما يقوله الشعراوى ، ولابد أن يجد الرئيس حلا أو حدا لذلك . وطلب منى الرئيس السادات أن أشاهد الأحاديث الأخيرة للشيخ الشعراوى . وعدت للرئيس أبلغه أنها عادية ، فالشعراوى أحد علماء البلاغة القرآنية ، ولم يذهب بعيدا فى تفسير القرآن .

وتلقيت من د. بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية نص الخطاب الذى ألقاه وزير التعليم الإسرائيلى . . وفى الخطاب يقول : إنه لن يتحقق السلام إلا إذا حذفنا من القرآن الكريم الآيات التى تتهجم على اليهود . فأرسلنى الرئيس السادات لكى أقابل بيجن وأقول له : إما أن تتوقف عن اتهاماتك للشعراوى ، وإما أن ننشر خطاب وزير التعليم على أوسع نطاق ونوقظ الكراهية النائمة عند ملايين المسلمين ! وقرر بيجن أن يكف عن مهاجمة الشيخ الشعراوى ، وأن يخرس وزير التعليم فى إسرائيل .

ومرة أخرى فوجئنا فى مصر بكتب مطبوعة فى إسرائيل لمذاهب إسلامية منحرفة . فأوفدنى الرئيس مبارك لمقابلة رئيس الدولة إسحق نافون . وقرأت عليه الرسالة ، وذكرت أسماء الكتب التى فوجئنا بتوزيعها فى القاهرة . ولا نعرف كيف دخلت ، وكيف انتشرت . فأعلن الرئيس نافون أسفه ، وأنه لا يعرف شيئا عن هذه

الكتب . وركبت سيارة واتجهت إلى الشارع الذى توجد به المطبعة التى نشرت هذه الكتب .

فلا وجدت الشارع ولا المطبعة فى مدينة حيفا . وإذا كان أحد يهاجم دين أحد ففى إسرائيل ، ولكننا لا نطبع ولا ننشر أى شىء يعادى السامية لسبب بسيط جدا ، وهو أن أنبياءنا جميعا ساميون : موسى ، وعيسى ، ومحمد . وكذلك أصحاب الرسالات الإصلاحية : بوذا ، وكونفوشيوس ، وزرادشت . أما أعداء السامية فهم الخواجات الأوروبيون الذين يحكمون إسرائيل ، ويقتلون الساميين أبناء فلسطين ! » أ.هـ


البحر المتوسط
أشدود
اورشليم
غزة
جرار
بئرسبع
(بورسعيد)
العمالقة
برية شور
أدوم
سعير
برية صين
برية فاران
أرض جاسان
سكوت ؟
أون
(القاهرة)
نهر النيل
كليسما
(السويس)
أيلة
عصيون جابر
العقبة
مارة ؟
ايليم ؟
بلاد مديان
جبل سيناء
حوريب

من رسالة يعقوب

هلمّ الآن أيها الأغنياء . ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة . غناكم قد تهرّأ وثيابكم قد أكلها العُث . ذهبكم وفضتكم قد صدئا . وصدأهما يكون شهادة عليكم ويأكل لحومكم كنار . **قد كنزتم فى الأيام الأخيرة** (١). هو ذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المبخوسة منكم تصرخ ، وصياح الحصادين قد دخل إلى أذنى رب الجنود . قد ترفهتم على الأرض وتنعمتم وربيتم قلوبكم كما فى يوم الذبح . حكمتم على البار . قتلتموه . لا يقاومكم .

فتأنَّوا أيها الإخوة إلى مجئ الرب(٢) . هو ذا الفلاح ينتظر ثمر الأرض الثمين متأنيا عليه حتى ينال المطر المبكر والمتأخر . **فتأنَّوا أنتم وثبتوا قلوبكم لأن مجئ الرب قد اقترب** . لا يئن بعضكم على بعض أيها الإخوة لئلا تدانوا . هو ذا الديان واقف قدام الباب . خذوا يا إخوتى مثالا لاحتمال المشقات والأناة ؛ الأنبياء الذين تكلموا باسم الرب . **ها نحن نطوِّب الصابرين . قد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب**. لأن الرب كثير الرحمة ورءوف .

ولكن قبل كل شيء يا إخوتى لا تحلفوا . لا بالسماء ولا بالأرض ولا بقسم آخر. بل لتكن نعمكم نعم ، ولا كم لا ؛ لئلا تقعوا تحت دينونة .

أعلى أحد بينكم مشقات ؛ فليصلّ . أمسرور أحد ؛ فليرتل . أمريض أحد

(١) الأيام الأخيرة : اصطلاح خاص بنهاية زمان شريعة التوراة ، وبدء شريعة القرآن.

(٢) مجىء الرب : المراد به : مجىء نبيه الذى نبه موسى عليه فى سفر التثنية وهو محمد ﷺ

بينكم ؛ فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب . وصلاة الإيمان تشفى المريض والرب يقيمه . وإن كان قد فعل خطية ؛ تُغفر له . اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض ، لكى تُشفوا . طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها . كان إيليا إنسانا تحت الآلام مثلنا وصلى صلاة لا تمطر ؛ فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر . ثم صلى أيضا فأعطت السماء مطراً وأخرجت الأرض ثمرها .

أيها الإخوة . إن ضل أحد بينكم عن الحق ؛ فرده أحد ؛ فليعلم أن من رد خاطئا عن ضلال طريقه ؛ يُخلص نفسا من الموت ويستر كثرة من الخطايا »[يع ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالكتاب

هذا الكتاب يُقدم للقارئ قصة أيوب عليه السلام المدونة فى التوراة ؛ ليصحح عليها المكتوب فى الكتب الإسلامية . لا على أنها هى الحق الذى لا ريب فيه ، بل على أنها مدونة هكذا فى كتب أهل الكتاب . وقد قال العلماء : إن ما عند أهل الكتاب يُعرف على ما هو عليه عندهم بلا تصديق ولا تكذيب . وإن ظهرت منه فائدة ؛ فليس من مانع أن ننتفع بها . وإن ظهرت منه أسطورة ؛ فإنها تُعرف من باب العلم بالشىء .

وعلماؤنا تدل كتبهم على أنهم قرأوا قصة أيوب ـ عليه السلام ـ ونقلوا منها . وبعضهم لم يفرّق بين الحقيقة والمجاز فى كلام أيوب . ففى شكواه إلى الله تعالى يقول :« الإنسان لاجئ على الأرض ، وكأيام الأجير أيامه . كالعبد المشتاق إلى الظل ، والأجير الذى ينتظر أجرته . شهور من البؤس نصيبى ، وليال من الشقاء قدرت لى . أنام فأقول : متى الفجر؟ وأقوم فأقول : ما أبطأ المساء؟ لحمى كساه الدود والقروح ، وجلدى تشقق قيحا وسال . . » [أى ٧ : ١ ـ]

انظر إلى قوله عليه السلام :« لحمى كساه الدود والقروح ، وجلدى تشقق قيحا وسال » تجده تعبيرا مجازيا عن هوانه وضعفه . وليس هو بتعبير حقيقى .

وقد أكثر الشيخ أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ـ رحمه الله ـ من النقل من التوراة ، وصاغ العبارات بأسلوب لا ينفّر منه المسلمين . وذكر حوار أصحابه الثلاثة باختصار لا يخلّ بالمعنى . ونقل عبارات بنصها . نقلها أيضا الإمام ابن كثير

المفسر فى تفسيره .

وأرجع الثعلبى ـ رحمه الله ـ نسبه إلى عِيسُو بن إسحق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبدل أن يكتب «أدوم» بالدال كتب «الروم» وأدوم هو نفسه عيسو بن إسحق عليه السلام وإليه ينتسب سكان الأردن . أما الروم فهم أهل روما وإيطاليا . وقد نشأوا فى بلادهم التى هى بعيدة عن بلاد الأردن . فقوله :« كان أيوب رجلا من الروم» صحته : كان أيوب رجلا من أدوم . وقد وقع فى هذا الخطأ كل من قرأت لهم فى التاريخ وعلم الأديان من المسلمين .

وقوله « وكان له الثنية من أرض الشام كلها . سهلها وجبلها» صحته ـ على نسبه الذى ذكره ـ : من أرض الأردن ؛ لأنه من نسل عِيسو . يدل على ذلك : أن أمه من ولد لوط . كما يقول الثعلبى . ولوط كان من سكان الأردن .

ونحن نرى ـ والعلم لله ـ أنه كان من بنى إسرائيل العبرانيين من أحد السبطين يهوذا ، أو بَنْيامين ، وأنه كان فى أرض « أورشليم » فى منطقة اليهودية ـ التى هى «القدس» ـ وأن امرأته من سبطه . ويدل على ذلك : أن علماء بنى إسرائيل العبرانيين وضعوا سفره مع أسفار الأنبياء . ولو كان من عيسو ، ما كانوا يضعون فى التوراة سفره . ولو كان من اليهود السامريين الذين هم عشرة أسباط ؛ ما كان يكون له سفر موضوع فى التوراة مع أسفار الأنبياء . وذلك لأن السامريين لا يقدسون : إلا الأسفار الخمسة لموسى عليه السلام . ويدل على ذلك إيضا : أن عين الماء التى ركض فيها برجله موجودة فى « أورشليم » وقد قال الثعلبى : إن امرأته سامرية من نسل أفرايم بن يوسف عليه السلام . وقوله هذا يناقض قوله : إنه كان من نسل أدوم الذى هو « العِيص » الذى ينطق الآن « عِيسو » لأنه لو كان من عيسو ؛ لما تزوج من نساء بنى إسرائيل ؛ لما جاء فى سفر العدد وهو : « وكل بنت ورثت نصيبا من أسباط بنى إسرائيل ؛ تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها . . »

[عد ٣٦:٨]

وفى الكتب التى وُجدت فى « قمران » أن أيوب من نسل عيسو ، وأنه كان فى الزمان من قبل نزول التوراة على موسى عليه السلام . ولكن ما فى القرآن عن عدم الحنث فى يمينه ؛يدل على أنه كان من بعد عصر موسى عليه السلام .

وكان له أصدقاء ثلاثة : الأول من اليمن، والثانى من قبيلة شوح . وهو ابن إبراهيم ـ عليه السلام ـ من قطورة . وكان من سكان الأردن . والثالث : من نسل نعمة المؤآبية جدة داود ـ عليه السلام ـ ومؤآب هى دمشق .

وفى القصة ما يدل على أنه كان من العلماء المعلّمين . فقد قال له أليفاز :«ما أكثر الذين أرشدتهم ، وكم شددت من أيد مرتخية . كلامك كم أنهض العاثرين، وثبت من ركب راكعة» [أى ٤ :٣ ـ ٤]

وفى كتب النصارى : أن «بُولُس» الذى عاند المسيح عيسى بن مريم وعكس دعوته ؛ كان من سبط بَنيامين ، ولم يكن من سبط لاوِي ، المفرز من الله تعالى للتعليم الدينى . وهذا يدل على أنه كان من غير اللاويين مُعلّمون . لكن الإمام المطهِّر المستغفِر ، الذى يُقدّم للصلاة بالناس . ويقوم بالمراسم والشعائر ؛ يكون من اللاويين . وإن أيوب لو كان من اللاويين ، لما كان تلف ماله يؤثر فيه . وذلك لأنه سيأكل من طعام الكهنة الذى يأتيهم من العشور والصدقات والباكورات .

وصديقه صُوفر النعماتى . منسوب إلى «نُعمة» زوجة «أليمالك» ونعمة أنجبت ولدان وماتا وتركا «عُرفة» و «راعوث» وراعوث تزوجت «بُوعز» وأنجبت منه «عُوبِيد» وفرحت به نعمة وربته . وعوبيد أنجب «يَسَّى» ويسى ولد داود ـ عليه السلام ـ وعلى هذا يكون أيوب من بعد زمان موسى ـ عليه السلام ـ وكان على شريعته(١) .

---

(١) كلمة «شئول» فى العبرانية ، معناها « الهاوية » وهى مصير الأشرار . تدل على الحياة الآخرة . وفيها يعاقب الأشرار . و «شئول» تضارع «أمنى» عند المصريين القدماء الذين كانوا يدينون بعقيدة «أوزوريس» ومعاونيه ، فى قاعة المحاكمة بعد الموت .

وفى زمانه كان اليهود يقبلون الأمم فى اليهودية ؛ فإن راعوث المؤآبية ليست من اليهود ، وقد أنجبت في اليهود ملكا هو داود ـ عليه السلام ـ .

= وتضارع « أرالو » البابلية ومعناها : أرض الموت التى لا عودة منها .
وتضارع: «الهادز» اليونانية . ومعناها : المسكن الغامض لأشباح الراحلين .

وهذا التشابه بين الأمم فى المعنى ، يدل على أن دين موسى عليه السلام قد أثر فى الأمم تأثيرا قويا . وأكد لهم ما ورثوه عن هذه العقيدة من آدم والنبيين من بعده . أليس نبى الله يوسف عليه السلام قد قال : ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾؟ وابتدأ يشرح لهم أمر الآخرة . ولما قال فرعون لموسى : ﴿ ما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب . لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ وهو عنده فى كتاب للمجازاة فى اليوم الأخير . وإبراهيم فى بلاد الكفار يصرح باليوم الأخير فيقول : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدينى ﴾ إلى أن قال : ﴿ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾

ونبى الله أيوب عليه السلام الذى يصرح فى سفره بعقيدة البعث من الأموات ، منهم من يقول : إنه كان قبل موسى بزمان طويل ، وأنه كان فى فلسطين . ويرى آخرون ـ بناء على ما جاء فى رسائل «تل العمارنة» وغيرها من النصوص المصرية الحثّية القديمة ـ أنه كان اسما شائعا . وإن الصيغة الأصلية للاسم هى « أباب » التى قد تعنى«أين أبى؟» أى أنه يتيم .

وجاء فى الآثار السومرية شيء عن «أيوب» وأيضا فى الأدب البابلى جاءت مناجاة شعرية عنه بعنوان « أشكر رب الحكمة » وفى الأدب الفرعونى فيما بين المملكة القديمة والوسطى ظهرت وثيقة عنوانها « حوار حول الانتحار » فيها بعض ملامح سفر أيوب . وفيها : « أن الموت خير من الحياة ، لأن الناس يصبحون كالآلهة فى العالم السفلى » .

وتوجد وثيقة ترجع إلى ألف عام قبل الميلاد . تعالج موضوع « عدالة الله » وعنوانها: « حوار حول البؤس الإنسانى » وهى الأقرب إلى سفر أيوب .

وقد جاء فى القرآن الكريم عن أيوب عليه السلام : ﴿ أركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ ويقول العلماء : « إن المصدر الثانى للمياه فى « أورشليم » هو البئر =

وفى القصة : أنه كان له من قبل المحنة ٧٠٠٠ غنم ـ ٣٠٠٠ جمل ـ ٥٠٠ر فدان بقر ـ ٥٠٠ر أتان . وبعد المحنة صار العدد مضاعفا .

أما الأولاد : من قبل المحنة ومن بعدها . فعددهم واحد ٧ بنين و٣ بنات . وفى القرآن الكريم ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾

أى ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ﴾ من بعد المحنة ﴿ وَمِثْلَهُم ﴾ من الدواب والأنعام آتيناه ﴿مَّعَهُمْ﴾ أى مع أهله .

***

وفى تفسير القرطبى رضى الله عنه : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى : كان أيوب حلف فى مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة . وفى سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها : ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها فى صورة

العميقة المسماة « بئر أيوب » والتى تقع أدنى قليلا من النقطة التى يتقابل عندها «وادى قدرون» مع « ابن هنوم» وترجع تسميتها بهذا الاسم إلى أسطورة تقول : إن الله أمر أيوب أن يقف على قدميه ، فينفجر نبع بعمل معجزى . وكانت البئر قد اختفت عن الأنظار . ولكن أعيد اكتشافها بواسطة الصليبيين فى سنة ١١٨٤م وقاموا بتطهيرها ، ويبلغ عمقها نحو ١٢٥ قدما . والماء الذى يغذى هذه البئر لا ينضب»أهـ.

وكلمة « شئول » تدل على مكان إقامة الموتى ، ويظنونها فى أعماق الأرض [مزمور ٦٣ : ٩، ٨٦ : ١٣ وحزقيال ٢٦ : ٢٠ و٣١ : ١٤ و٣٢ : ١٨ و٢٤ وعدد ١٦ : ٣٠ وتثنية ٣٢ : ٢٢ حتى يجمع الموتى فى مجموعات . ومن هنا جاء التعبير « انضم إلى قومه» [تك ٢٥ : ١٨ و٣٥ : ٢٩ و٤٩ : ٣٣ وعدد ٢٠ : ٢٤] وهذا التعبير يدل ـ كما توضحه القرينة ـ على شيء يختلف تماما عن الدفن . فيعقوب ـ مثلا ـ « انضم إلى قومه » وبعد ذلك حنطوا جسده ، وبعد أيام كثيرة « دفن » [تك ٥ : ٢]

طبيب ، فدعته لمداواة أيوب ، فقال : أداويه على أنه إذا برئ يقول : أنتَ شفيتنى ، لا أريد جزاء سواه . قالت : نعم . فأشارت على أيوب بذلك ؛ فحلف ليضربنَّها ، وقال : وَيْحَكِ ذاك الشيطان . الثانى : ما حكاه سعيد بن المسيّب ، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز ؛ فخاف خيانتها فحلف ليضربنَّها . الثالث : ما حكاه يحيى بن سلام وغيره : أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرّبا إليه . وأنه يبرأ ، فذكرت ذلك له ؛ فحلف ليضربنها إن عوفى مائة . والرابع : قيل : باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب ، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ؛ فلهذا حلف ليضربنها ، فلما شفاه الله ؛ أمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به ، فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة . وقيل : الضغث قبضة حشيش مختلطة الرَّطب باليابس . وقال ابن عباس : إنه عثكال النخل الجامع بشماريخه .

الثانية : تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل امرأته ؛ تأديبا . وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة ؛ فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل . وهذا لا يجوز فى الحدود . إنما أمره الله بذلك ؛ لئلا يضرب امرأته فوق حد الأدب ، وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حد الأدب ، ولهذا قال ﷺ : « واضربوهن ضربا غير مُبرِّح » .

الثالثة : واختلف العلماء فى هذا الحكم . هل هو عام أو خاص بأيوب وحده؟ فروى عن مجاهد : أنه عام للناس ، ذكره ابن العربى . وحكى عن القشيرى: أن ذلك خاص بأيوب ، وحكى المهدوى عن عطاء بن أبى رباح : أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باق ، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ،نحوه ضربة واحدة ؛ بَرَّ. وروى نحوه الشافعى، وروى نحوه عن النبى ﷺ فى المُقعد الذى حملت منه الوليدة ، وأمر أن يُضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة . وقال القشيرى : وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم ؟ فقال : ما أُنزل القرآن إلا ليعمل به ، ويتبع .

ابن العربى . وروى عن عطاء : أنها لأيوب خاصة . وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك : من حلف ليضربن عبده مائة ؛ فجمعها فضربه بها ضربة واحدة؛ لم يبرّ . قال بعض علمائنا : يريد مالك قوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى أن ذلك منسوخ بشريعتنا . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علىّ أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة ، وأنكر مالك هذا ، وتلا قول الله عز وجل : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾وهذا مذهب أصحاب الرأى . وقد احتج الشافعى لقوله بحديث ، وقد تُكلِّم فى إسناده، والله أعلم .

قلت : الحديث الذى احتج به الشافعى ؛ خرجه أبو داود فى سننه قال : حدثنا أحمد بن سعيد الهمدانى ، قال حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يونس عن ابن شهاب ، قال : أخبرنى أبو أمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبى ﷺ من الأنصار ، أنه اشتكى رجل منهم حتى أضنَى ، فعاد جلدةَ على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم ؛ فهش لها ؛ فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه ؛ أخبرهم بذلك ، وقال : استفتوا لى رسول الله ﷺ فإنى قد وقعت على جارية دخلت علىّ ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا : ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذى هو به . لو حملناه إليك لتفسخت عظامه. ما هو إلا جلد على عظم ، فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة .

قال الشافعى : إذا حلف ليضربن فلانا مائة جلدة ، أو ضربا . ولم يقل ضربا شديداً ولم ينو ذلك بقلبه ؛ يكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية ولا يحنث . قال ابن المنذر : إذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة ، فضربه ضربا خفيفا. فهو بارّ عند الشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى ، وقال مالك : ليس الضرب إلا الضرب الذى يؤلم .

الرابعة : قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ دليل على أن الاستثناء فى اليمين لا يرفع حكما إذا كان متراخيا . يقال : حنث فى يمينه يحنث إذا لم يَبَرّ بها ، وعند الكوفيين الواو مقحمة . أى فاضرب لا تحنث .

الخامسة : قال ابن العربى : قوله تعالى : ﴿ فاضرب به ولا تحنث ﴾ يدل على أحد وجهين : إما أن يكون أنه لم يكن فى شرعهم كفارة ؛ وإنما كان البرّ والحنث ، والثانى : أن يكون صدر منه نذر لا يمين ، وإذا كان النذر معيّنا ؛ فلا كفارة فيه . عند مالك وأبى حنيفة ، وقال الشافعى : فى كل نذر كفارة .

قلت : قوله : إنه لم يكن فى شرعهم كفارة ؛ ليس بصحيح ؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقى فى البلاء ثمان عشرة سنة ، كما فى حديث ابن شهاب ، قال له صاحباه :« لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه » فقال أيوب عليه السلام : ما أدرى ما تقولان ، غير أن ربى عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتنازان . فكل يحلف بالله ، أو على النفر يتنازعون ؛ فأنقلب إلى أهلى ، فأكفر عن أيمانهم ، إرادة أن لا يأثم أحد يذكره ، ولا يذكره إلا بحق . فنادى ربه : ﴿ أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ وذكر الحديث .

فقد أفادك هذا الحديث : أن الكفارة كانت من شرع أيوب ، وأن من كفّر عن غيره بغير إذنه ، فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة .

السادسة : استدل بعض جهّال المتزهدة ، وَطَغَام المتصوّفة بقوله تعالى لأيوب: ﴿اركض برجلك ﴾ على جواز الرقص . قال أبو الفرج بن الجوزى : وهذا احتجاج بارد ؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرِّجل فرحاً ؛ كان لهم فيه شبهة ، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء . قال ابن عقيل : أين الدلالة فى مبتلى أُمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص ؟ ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوامّ دلالة على جواز الرقص فى الإسلام ؛ جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى : ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ دلالة على ضرب المحادّ

بالقضبان. نعوذ بالله من التلاعب بالشرع .

وقد احتج بعض قاصريهم بأن رسول الله ﷺ قال لعلىّ : « أنت منى وأنا منك » فحَجَل ، وقال لجعفر : « أشبهت خَلْقى وخُلُقى » فحَجَل ، وقال لزيد : «أنت أخونا ومولانا » فحجل ، ومنهم من احتج بأن الحبشة زَفَنت والنبى ﷺ ينظر إليهم .

والجواب : أما الحَجْل فهو نوع من المشى يُفعَل عند الفرح ، فأين هو والرقص .

وكذلك زَفْن الحبشة ، نوع من المشى يُفعل عند اللقاء للحرب .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ إنا وجدناه صابرا ﴾ أى على البلاء ﴿ نعم العبد إنّه أواب ﴾ أى تواب رجّاع مطيع . وسُئل سفيان : عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر ، وأنعم على الآخر فشكر . فقال : كلاهما سواء ؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر ؛ ثناء واحداً ، فقال فى وصف أيوب :﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ وقال فى وصف سليمان : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾

قلت : وقد ردّ هذا الكلام صاحب (القوت) واستدل بقصة أيوب فى تفضيل الفقير على الغنى ، وذكر كلاما كثيراً شيّد به كلامه ، وقد ذكرناه فى غير هذا الموضع من كتاب (منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد) وخفى عليه : أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده ، وإنما ابتلى بذهاب ماله وولده ، وعظيم الداء فى جسده ، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا ، فأيوب عليه السلام دخل فى البلاء على صفة ، فخرج منه كما دخل فيه ، وما تغير منه حال ولا مقال ، فقد اجتمع مع أيوب فى المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذى فضل فيه بعض الناس بعضا ، وبهذا الاعتبار يكون الغنى الشاكر والفقير الصابر؛ سواء . وهو كما قال سفيان ،

والله أعلم .

وفى حديث ابن شهاب عن النبى ﷺ :« إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه : ﴿ اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ فاغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وبشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان فى جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، ثم أقبل يمشى إلى منزله ورَاثَ على امرأته فأقبلت حتى لقيته وهى لا تعرفه . فسلّمت عليه وقالت : أى يرحمك الله هل رأيت هذا الرجل المبتلَى ؟ قال : من هو ؟ قالت : نبى الله أيوب ، أما والله ما رأيت أحدا قط أشبه به منك إن كان صحيحا ، قال : فإنى أيوب ، وأخذ ضِغْثا فضربها به . فزعم ابن شهاب : أن ذلك الضغث كان ثماما ، وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم ، فأقبلت سحابة حتى سجلت فى أندر قمحه ذهبا حتى امتلأ ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أنْدَر شعيره وقطانِيه فسَجّلت فيه وَرِقا حتى امتلأ .

***

النبوءات عن محمد ﷺ عن طريق قصة أيوب :

فى كتب الأناجيل فى سياق الحديث عن أيوب عليه السلام نبوءات من التوراة عن محمد ﷺ وفيها أيضا بعد الكلام عن صبره ؛ كلام عن الوفاء بالقَسَم . وقد استشهد بها كتّاب الأناجيل على حثّ الدعاة إلى النصرانية على الصبر . والنصرانية هى دعوة إلى اقتراب ملكوت الله الذى هو ملك محمد ﷺ وشريعته كما أنبأ دانيال فى الأصحاح السابع وليست دينا مستقلا عن دين التوراة . وفيها : إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ؛ تكوى بها جباههم وجنوبهم .

« اقتدوا أيها الأخوة بالأنبياء الذين تكلموا باسم الرب ، فتعذبوا وصبروا. وهنيئا للذين صبروا . سمعتم بصبر أيوب ، وعرفتم كيف كافأه الرب ؛

فهو رءوف رحيم . وقبل كل شىء يا إخوتى لا تحلفوا بالسماء ولا بالأرض ،ولا بشىء آخر ؛ لتكن نعمكم نعما ، ولاكم لا ؛ لئلا ينالكم عقاب » [يع ٥ : ١٠ - ١٢]

« أموالكم فسدت وثيابكم أكلها العِث . ذهبكم وفضتكم يعلوهما صدأ يشهد عليكم ، ويأكل أجسادكم كالنار .تخزنون للأيام الأخيرة »

وفى ترجمة البروتستانت : « غناكم قد تهرأ ، وثيابكم قد أكلها العث . ذهبكم وفضتكم قد صدئا . وصدأهما يكون شهادة عليكم ، ويأكل لحومكم كنار . قد كنزتم فى الأيام الأخيرة » وفى نسخة : « كنار كنزتم » بدل « قد كنزتم » والمراد بالأيام الأخيرة : ما فى رومية ٢ : ٥ « ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب، تذخر لنفسك غضبا فى يوم الغضب ، واستعلان دينونة الله العادلة ، الذى سيجازى كل واحد حسب أعماله . . . »

لاحظ : يوم الغضب . وهو يوم الرب[1] . واقرأ قول الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

***

الحكم الفقهى فى قصة أيوب :

مما يدل دلالة قاطعة على أن أيوب كان من بعد موسى: قوله تعالى : ﴿ وَلا تَحْنَثْ ﴾ وذلك لأنه من قبل موسى لم تكن من تشريعات تنهى عن الحلف بالله .

(١) اقرأ عن يوم الرب : كتابنا يوم الرب العظيم . وكتابنا هرمجدون حقيقة أم خيال؟ نشر مكتبة الإيمان بالمنصورة .

إن صدقا وإن كذبا . والشريعة العالمية التى كانت من قبل شريعته ـ وهى شريعة نوح عليه السلام ـ ليس فيها هذا الحكم(١) .

وفى التوراة : أن من حلف بالله تعالى؛ يلزمه الالتزام بما حلف عليه . وليس فيها تحلّة الأيمان . أما فى القرآن فإن من يريد الرجوع فى يمينه ؛ له الرجوع بشرط كفارة هى فى الآية﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾ المائدة ٨٩ .

فالحكم فى التوراة ثقيل ، وهو في القرآن خفيف . والنص عليه فى التوراة مذكور فى الخروج ٢٠ :٧ واللاويين ١٩ :١٢ والعدد ٣٠ :٢ « لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا . لأن الرب لا يُبرئ من نطق باسمه باطلا » . . « ولا تحلفوا باسمى للكذب؛ فتدنس اسم إلهك . أنا الرب ». .« إذا نذر رجل نذراً للرب، أو أقسم قسما أن يلزم نفسه بلازم ؛ فلا ينقض كلامه. حسب كل ما خرج من فمه؛ يفعل» .

وقد نصح المسيح عيسى عليه السلام بعدم الحلف ؛ خشية الحرج . فقال : «أيضا سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تحنث بل أوف للرب أقسامك . وأما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا البتة . . » [متى ٥: ٣٣ ـ ٣٤]

فإذا حلف أيوب بالله أن يضرب ؛ فإنه يلزمه الضرب ؛ إذ ليس فى التوراة تحلّة القسم. ولذلك أوحى الله إليه بأن يأخذ ضغثا فى يده ، ويضرب ضربة واحدة؛ تحل محل العدد الذى حلف عليه . وقد تحلل من قَسَمه بهذه الحيلة الشرعية.

فلو أننا نحن المسلمين أخذنا بهذه الحيلة تشبها بفعل أيوب عليه السلام . فإننا نكون غافلين عن التخفيف الذى أنعم الله به علينا . ولابد من الأخذ به ؛ لقوله :

---

(١) راجع تفسير الإمام ابن كثير فى آية ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ وكان يلزمنا الأخذ به ـ جدلا ـ لو كان حكم التوراة مشابها لحكم القرآن فى القسم . أما وهو مختلف . والقياس لا يصح مع الاختلاف ؛ فإنه لا يلزمنا شرعا أن نأخذ به . ويترتب على هذا الذى قلناه : فساد رأى الفقهاء القائلين بأن ما كان لأيوب ؛ يكون للمسلمين. وذلك لأنه خاص بأيوب ولمن كانوا على شريعة التوراة من قبل أن تنسخ بالقرآن الكريم . ويترتب عليه أيضا : تضعيف الأحاديث التى وضعها الرواة فى الأحاديث الصحيحة ؛ ليساووا بها شريعة التوراة بشريعة القرآن ؛ حتى لا تكون للقرآن أفضلية على التوراة. وعندئذ يقولون للناس : لماذا جاء محمد إذا كان ما جاء به ؛ هو نفسه ما عندنا؟

انظر إلى قول ابن العربى وهو : أن قوله تعالى : ﴿ فاضرب به ولا تحنث ﴾ يدل على أحد وجهين : إما أن يكون أنه لم يكن فى شرعهم كفارة . وإنما كان . إما البر وإما الحنث . والثانى : أن يكون صدر منه نذر لا يمين .

هذا هو كلامه . والحق أنه ليس فى شرعهم إلا البر أو الحنث . وقوله بالتفرقة بين النذر واليمين ؛ قول باطل . فإنه لا تفرقة بينهما(١) حتى أن « يَفْتاح الجلعادِى قتل ابنته فى نذر نذره . وهذا هو النص من الأصحاح الحادى عشر من سفر القضاة : « فكان روح الرب على يفتاح فعبر جلعاد ومنسّى . وعبر مصفاة جلعاد ومن مصفاة جلعاد عبر إلى بنى عمون . ونذر يفتاح نذراً للرب قائلا : إن دفعت بنى عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة . ثم عبر يفتاح إلى بنى عمون لمحاربتهم . فدفعهم الرب ليده . فضربهم من عروعير إلى مجيئك إلى منّيت. عشرين مدينة وإلى آبل الكروم ضربة عظيمة جداً . فذل بنو عمّون أمام بنى

(١) فى الأصحاح الثلاثين من سفر العدد :

« إذا نذر رجل نذراً للرب ، أو أقسم قسما أن يلزم نفسه بلازم ؛ فلا ينقض كلامه . حسب كل ما خرج من فمه ؛ يفعل »

إسرائيل .

ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته . وإذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص . وهى وحيدة . لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها . وكان لما رآها أنه مزق ثيابه وقال : آه يا بنتى . قد أحزنتنى حزنا وصرت بين مكدّرى لأنى قد فتحت فمى إلى الرب، ولا يمكننى الرجوع . فقالت له : يا أبى هل فتحت فاك إلى الرب ؟ فافعل بى كما خرج من فيك بما أن الرب قد انتقم لك من أعدائك بنى عمون . ثم قالت لأبيها : فليفعل لى هذا الأمر . اتركنى شهرين فأذهب وأنزل على الجبال وأبكى عذراويتى أنا وصاحباتى . فقال : اذهبى وأرسلها إلى شهرين . فذهبت هى وصاحباتها وبكت عذراويتها على الجبال . وكان عند نهاية الشهرين أنها رجعت إلى أبيها ففعل بها نذره الذى نذر . وهى لم تعرف رجلا . فصارت عادة فى إسرائيل : أن بنات إسرائيل يذهبن من سنة إلى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادى أربعة أيام فى السنة» [قض ١١:٢٩ ـ ٤٠]

***

وقد ساوى المسيح عيسى عليه السلام بين إبراهيم عليه السلام وبين أيوب عليه السلام فى البر . فقال : « الحق أقول لكم : إن يوم دينونة الله سيكون رهيبا ، بحيث أن المنبوذين يفضلون عشر جحيمات على أن يذهبوا ليسمعوا الله يكلمهم بغضب شديد ، الذين ستشهد عليهم كل المخلوقات . الحق أقول لكم : ليس المنبوذون هم الذين يخشون فقط ، بل القديسون وأصفياء الله كذلك ، حتى أن إبراهيم لا يثق ببرّه ، ولا يكون لأيوب ثقة فى براءته . وماذا أقول ؟ بل إن رسول الله سيخاف ...» [بر ١:٥٢ ـ]

وفى سفر حزقيال أن الله ساوى بين نوح ودانيآل وأيوب فى البرّ . ففى الأصحاح الرابع عشر : « وكانت إلى كلمة الرب قائلة : يا بن آدم إن أخطأت إلى

أرض وخانت خيانة فمددت يدى عليها وكسرت لها قوام الخير وأرسلت عليها الجوع وقطعت منها الإنسان والحيوان . وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيآل وأيوب . فإنهم إنما يُخلّصون أنفسهم ببرهم . يقول السيد الرب . إن عبرت فى الأرض وحوشا رديئة فأثكلوها وصات خرابا بلا عابر بسبب الوحوش وفى وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة . فحى أنا يقول السيد الرب أنهم لا يخلصون بنين ولا بنات . هم وحدهم يخلصون والأرض تصير خربة أو إن جلبت سيفا على تلك الأرض وقلت : يا سيف اعبر فى الأرض وقطعت منها الإنسان والحيوان وفى وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة فحى أنا يقول السيد الرب إنهم لا يخلصون بنين ولا بنات بل هم وحدهم يخلصون ، أو إن أرسلت وباء على تلك الأرض وسكبت غضبى عليها بالدم لأقطع منها الإنسان والحيوان وفى وسطها نوح ودانيآل وأيوب . فحى أنا يقول السيد الرب إنهم لا يخلصون ابنا ولا ابنة . إنما يخلصون أنفسهم ببرهم »[1]
[حزقيال ١٤ : ١٢ ـ ٢٠]

وفى الأصحاح الخامس من رسالة يعقوب :

هلمّ الآن أيها الأغنياء . ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة . غناكم قد تهرّأ وثيابكم قد أكلها العُث . ذهبكم وفضتكم قد صدئا . وصدأهما يكون شهادة

(١) لاحظ : « إنما يخلصون ببرّهم » أى أن الخلاص بالإيمان وبالعمل ، لا بالإيمان وحده. كما فى القرآن الكريم : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ البقرة ١٧٧ وفى هذا رد على المسيحيين الذين يقولون بأن المسيح بقتله وصلبه قد رفع الخطايا . وكيف يصح ذلك وفى سفر الحكمة أن آدم تاب ، وتاب الله عليه ؟ ونص حزقيال هذا قد استدل به المسيح فى إنجيل برنابا .

عليكم ويأكل لحومكم كنار . قد كنزتم فى الأيام الأخيرة . هو ذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المبخوسة منكم تصرخ ، وصياح الحصادين قد دخل إلى أذنى رب الجنود . قد ترفهتم على الأرض وتنعمتم وربيتم قلوبكم كما فى يوم الذبح . حكمتم على البار . قتلتموه . لا يقاومكم .

فتأنَّوا أيها الإخوة إلى مجئ الرب . هو ذا الفلاح ينتظر ثمر الأرض الثمين متأنيا عليه حتى ينال المطر المبكر والمتأخر . فتأنَّوا أنتم وثبتوا قلوبكم لأن مجئ الرب قد اقترب . لا يئن بعضكم على بعض أيها الإخوة لئلا تدانوا . هو ذا الديان واقف قدام الباب . خذوا يا إخوتى مثالا لاحتمال المشقات والأناة ؛ الأنبياء الذين تكلموا باسم الرب . ها نحن نطوِّب الصابرين . قد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب. لأن الرب كثير الرحمة ورءوف .

ولكن قبل كل شيء يا إخوتى لا تحلفوا . لا بالسماء ولا بالأرض ولا بقسم آخر. بل لتكن نعمكم نعم ، ولا كم لا ؛ لئلا تقعوا تحت دينونة .

أعلى أحد بينكم مشقات ؛ فليصلّ . أمسرور أحد ؛ فليرتل . أمريض أحد بينكم ؛ فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب . وصلاة الإيمان تشفى المريض والرب يقيمه . وإن كان قد فعل خطية ؛ تُغفر له . اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض ، لكى تُشفوا . طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها . كان إيليا إنسانا تحت الآلام مثلنا وصلى صلاة لا تمطر ؛ فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر . ثم صلى أيضا فأعطت السماء مطراً وأخرجت الأرض ثمرها .

أيها الإخوة . إن ضل أحد بينكم عن الحق ؛ فرده أحد ؛ فليعلم أن من رد خاطئا عن ضلال طريقه ؛ يُخلص نفسا من الموت ويستر كثرة من الخطايا »[يع ٥]

لاحظ :

١ ـ « ذهبكم وفضتكم . . . » وتذكّر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

٢ ـ « فى الأيام الأخيرة » وتذكّر أنها تدل على نهاية اليهود ، وبدء الإسلام من محمد ﷺ .

٣ ـ « مجيئ الرب قد اقترب » وهو « السيد » وهو النبى الأمى الآتى إلى العالم .

٤ ـ « ها نحن نطوّب الصابرين » .

٥ ـ « لا تحلفوا . لا بالسماء ولا بالأرض . . . » .

***

روح أيـــوب :

وفى كتاب التلمود أن روح الميت تحل فى جسد مولود جديد . وهذا هو المسمى بتناسخ الأرواح . وأن روح الشيخ الكبير فى السن تنتقل إلى جنين فتكون فى بطن أمه . فيصبح الجنين جسداً وروحا . وهذه الفكرة عند المسيحيين أيضا ؛ فإنهم يعتقدون أن يحيى عليه السلام كانت روح جسده هى روح إلياس عليه السلام. وفى التلمود : أن أولاد نوح الثلاثة كان منهم « يافث » وانتقلت روحه من بعد موته إلى جسد شمشون الجبار ، وتارح أبو إبراهيم ـ كما فى التوراة ـ انتقلت روحه إلى أيوب عليه السلام . وروح حواء انتقلت إلى إسحق عليه السلام ، وروح خادم راحاب الزانية انتقلت إلى حبرو ، وروح جابل إلى إلياس . وروح عيسو بن إسحق بن إبراهيم انتقلت إلى عيسى عليه السلام[1] .

---

(١) كتاب همجية التعاليم الصهيونية .

ونظرية تناسخ الأرواح باطلة ؛ لأن الروح هواء . وليست جسما ولا جوهراً مجرداً عن الجسمية ؛ كما بينا فى كتابنا حياة القبور بين المسلمين وأهل الكتاب .

عدد الأنبياء فى الإنجيل :

فى الأصحاح السابع عشر من إنجيل برنابا يقول عيسى عليه السلام : « لأن كل الأنبياء البالغين مئة وأربعة وأبعين[١] ألفا ، الذين أرسلهم الله إلى العالم قد تكلموا بالمعميات بظلام ، ولكن سيأتى بعدى بهاء كل الأنبياء والأطهار ؛ فيشرق نورا على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لأنه رسول الله » [بر ١٧ : ٢١ ـ ٢٣]

وفى الأحاديث النبوية أن عدد الأنبياء :

رواية : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا

ورواية : ثمانية آلاف

ورواية : ألف نبى أو أكثر

ورواية : ألف ألف نبى أو أكثر

وأن عدد الرسل فىالأحاديث النبوية :

رواية : ثلاثمائة وثلاثة عشر .

رواية : ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا .

رواية : ثلاثمائة وثلاثة عشر . جم غفير طيب .

وقال كعب الأحبار : ألفى ألف ومائتى ألف

وقال مقاتل : ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة وعشرين ألفا

عدد الكتب فى الأحاديث : مائة وأربعة .

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ النجم ٣٦ ـ ٣٧

---

(١) فى سفر الرؤيا : « وسمعت عدد المختومين مئة وأربعة وأربعين ألفا » [رؤ ٧ : ٤]

المراد بما جاء فى صحف إبراهيم : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النجم ٣٨ ـ ٤١

فقط . لا المكتوب من أول : « يا أيها الملك » إلى « فيما يعنيه »

والمراد بما فى صحف موسى نفس المعنى وهو ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النجم ٣٨ ـ ٤١

فقط . لا العبر ولا العقائد ولا التشريعات .

وهذان فى التوراة فى كلام الله مع إبراهيم فى قوم لوط ، وفى كلام موسى عن مسئولية كل إنسان عن عمله . وهذا يرد على المسيحيين قولهم بأن المسيح قد قُتل فداء عن خطايا بنى آدم . بدليل قوله بعد ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ النجم ٤٢ يشير به إلى نهاية ملك بنى إسرائيل وبدأ ملك بنى إسماعيل من محمد ﷺ وذلك لأن المسيح أنبأ عن علامات لزوال الملك ونسخ التوراة ومجئ النبى ﷺ وقال بعدها : « ثم يأتى المنتهى » [متى ٢٤]

هذا وبالله التوفيق . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٦ /١٠/ ١٤٢٣

١٠/ ١٢/ ٢٠٠٢

د . أحمد حجازى السقا

هدف القصة

إن الله تعالى رتب نظام العالم على ما هو عليه ، لحكمة يعلمها هو . فالمطر ينزل من السماء . وفيه فائدة ظاهرة للناس . والزلازل تهدّ نظام الأرض هداً . وفيها أضرار ظاهرة للناس . وإذا نزل المطر ينتفع به المؤمن والكافر ، وإذا وقع الزلزال فى أرض ؛ فإنه يضر المؤمن والكافر . لذلك يجب على المرء أن يستسلم لإرادة الله فى خلقه . وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

وفى هذا المعنى يقول المسيح عيسى عليه السلام عن الله عز وجل : « فإنه يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويُمطر على الأبرار والظالمين » [مت ٥ : ٤٥]

وفى سير الناس : أن المرء قد يمشى فى الصحراء ويضل الطريق ؛ فيتألم . وبينما هو فى هذه الحالة ؛ قد يبصر جبلا من الذهب ؛ فيسعد به . وقد يبصره سبع ضار ؛ فيفتك به . فإذا حصل هذا ؛ لا ينبغى الفرح على امتلاك نعمة ، ولا ينبغى الحزن على فقدها ؛ لأن الأغنياء والفقراء جميعا حال الرحيل من هذه الدنيا لا يأخذون شيئا من متاعها . وفى ذلك يقول أيوب عليه السلام : « الرب أعطى ، والرب أخذ ؛ فليكن اسم الرب مباركا »

وقد تألم أيوب عليه السلام لزوال النعمة عنه ؛ لأن الصفات البشرية من الفرح والحزن ، والسرور والغضب ، والأمن والخوف ، يشترك فيها الأنبياء وعامة الناس . فموسى عليه السلام لما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ؛ ﴿ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ مع أنه مؤمن بوعود الله . ومحمد ﷺ يقول الله تعالى له : ﴿

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾

فأيوب لم يتألم من قضاء الله وقدره ، وإنما لما أصابه من فقر بعد غنى ، ومن ذل بعد عز ؛ ظهرت صفاته البشرية على حقيقتها ؛ فعبر عنها كما يعبر الناس عما يصيبهم من خير وشر . ولكنه امتاز عنهم جميعا بالحكمة . إذ قال لنفسه : «أألخير نقبل من عند الله ، والشر لا نقبل»؟

ثم صور حاله فى أيام الغنى والفقر فقال : « إذا اضطجعت أقول : متى أقوم؟ الليل يطول ، وأشبع قلقا حتى الصبح . لبس لحمى الدود ، مع مدر التراب. جلدى كرش وساخ . أيامى أسرع من الوشيعة ، وتنتهى بغير رجاء »

وعزّى نفسه بنفسه فقال : إن المصائب التى تحل بالناس . إما أنها تحل بسبب أفعال الطبيعة التى يستوى فيها البر والفاجر ، وهى من صنع الله ، وإما أنها تحل بسبب عصيان أوامر الله . فمن يعلم الأسباب غير المصابين ؟ إن البار يعلم نفسه ، فإذا حصلت له مصيبة وهو بار ؛ فإنه لا يحزن ، وإن الفاجر يعلم نفسه ؛ فإذا حصلت له مصيبة وهو فاجر ؛ فإنه يحزن . أما حكم الناس على البار والفاجر بحسب ما يشاهدون من الأفعال ؛ فإنه حكم خاطئ . فقد يكون البار مرائيا ، وقد يكون الفاجر متظاهرا بالفجور ؛ لأن الناس من حوله فجرة ، أما هو فإنه يفعل الخير خفية . إذ أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

يقول بلدد الشوحى لأيوب : « إن كنتَ أنت زكيا مستقيما ؛ فإنه الآن يتنبه لك ، ويسلّم مسكن برّك ، وإن تكون أولاك صغيرة ؛ فآخرتك تكثر جداً » [٨ : ٦ـ٧]

وقد رد عليه بقوله : « صحيح . قد علمت أنه كذا » ولكنى أعلم أن الجزاء على الأعمال فى الدنيا هو جزاء جزئى لا كلى . والجزاء الكلى يكون فى يوم القيامة.

وسوف أحيا من بعد الموت ، وسوف تعلمون أن ما حدث لى ، ليس من الخطايا . وقد يكون امتحانا ، وقد يكون من أفعال الطبيعة ، كالزلازل والأعاصير. وصرح بيوم القيامة فقال : « أعرف أن شفيعى حى ، وسأقوم آجلا من التراب . فتلبس هذه الأعضاء جلدى ، وبجسدى أعاين الله ، وتراه عيناى إلى جانبى ، ولا يكون غريبا عنى . . . »(١)

وفى ترجمة البروتستانت هذا النص :

« فأجاب أيوب وقال : حتى متى تعذبون نفسى ، وتسحقوننى بالكلام . هذه عشر مرات أخزيتمونى . لم تخجلوا من أن تحكرونى . وهبنى ضللت حقا . علىّ تستقر ضلالتى(٢) . إن كنتم بالحق تستكبرون على ؛ فثبتوا على عارى . فاعلموا إذاً أن الله قد عوجنى ولف على أحبولته . ها إنى أصرخ ظلما فلا أستجاب . أدعو وليس حكم . قد حوط طريقى فلا أعبر وعلى سبلى جعل ظلاما . أزال عنى كرامتى ونزع تاج رأسى . هدمنى من كل جهة فذهبت . وقلع مثل شجرة رجائى. وأضرم على غضبه وحسبنى كأعدائه . معا جاءت غزاته وأعدوا على طريقهم وحلوا حول خيمتى . قد أبعد عنى إخوتى . ومعارفى زاغوا عنى . أقاربى قد خذلونى والذين عرفونى نسونى . نزلاء بيتى وإمائى يحسبوننى أجنبيا . صرت فى أعينهم غريبا . عبدى دعوت فلم يجب . بفمى تضرعت إليه . نكهتى مكروهة عند امرأتى وخممت عند أبناء أحشائى . الأولاد أيضا قد رذلونى . إذا قمت يتكلمون على . كرهنى كل رجالى والذين أحببتهم انقلبوا على . عظمى قد لصق بجلدى ولحمى ونجوت بجلد أسنانى . تراءفوا تراءفوا أنتم على يا أصحابى لأن يد الله قد مستنى . لماذا تطاردوننى كما الله ولا تشبعون من لحمى .

(١) ترجمة دار المشرق ، وترجمة المسيح المذكورة فى إنجيل برنابا . وتراجم البروتستانت فيها : بدون جسدى . لأنهم لا يثبتون بعث الأجساد .

(٢) فى القرآن : ﴿ كل امرئ بما كسب ؛ رهين ﴾ .

ليت كلماتى الآن تكتب . يا ليتها رسمت فى سفر ونقرت إلى الأبد فى الصخر بقلم حديد وبرصاص . أما أنا فقد علمت أن وليّ حى والآخر على الأرض يقوم وبعد أن يفنى جلدى هذا وبدون جسدى أرى الله . الذى أراه أنا لنفسى وعيناى تنظران وليس آخر . إلى ذلك تتوق كليتاى فى جوفى . فإنكم تقولون : لماذا نطارده. والكلام الأصلى يوجد عندى . خافوا على أنفسكم من السيف لأن الغيظ من آثام السيف . لكى تعلموا ما هو القضاء » [أى ١٩]

ولكن مساواة الأبرار والأشرار فى أفعال الطبيعة توحى للجهلاء بطبائع الأشياء : أن ليس إله خالق للعالم وضابط لأموره. إذ ليس عدل . إذ لو كان يوجد إله؛ لما كان الأبرار فى ضيق من العيش. ويحق لأيوب فى نظرهم أن ينكر خالقه .

وقد استفاض سفر أيوب بإثبات الأدلة على وجود الله ، وبيان فضله وعدله.

« هو ذا الله عزيز ولكنه لا يرذل أحداً . عزيز قدرة القلب . لا يحيى الشرير بل يجرى قضاء البائسين . لا يحول عينيه عن البار بل مع الملوك يجلسهم على الكرسى أبداً فيرتفعون . إن أوثقوا بالقيود . إن أخذوا فى حبالة الذل . فيظهر لهم أفعالهم ومعاصيهم لأنهم تجبروا ويفتح آذانهم للإنذار ويأمر بأن يرجعوا عن الإثم . إن سمعوا وأطاعوا قضوا أيامهم بالخير وسنيهم بالنعم . وإن لم يسمعوا فبحربة الموت يزولون ويموتون بعدم المعرفة . أما فجار القلب فيذخرون غضبا . لا يستغيثون إذا هو قيدهم . تموت نفسهم فى الصبا وحياتهم بين المأبونين . ينجى البائس فى ذله ويفتح آذانهم فى الضيق .

وأيضا يقودك من وجه الضيق إلى رحب لا حصر فيه ، ويملأ مؤونة مائدتك دهنا . حجة الشرير أكملت . فالحجة والقضاء يمسكانك . عند غضبه لعله يقودك بصفقة . فكثرة الفدية لا تفكك(١) . هل يعتبر غناك . لا التبر ولا جميع قوى

---

(١) فى القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) ﴾ المائدة ٣٦

الثروة. لا تشتاق إلى الليل الذى يرفع شعوبا من مواضعهم . احذر . لا تلتفت إلى الإثم لأنك اخترت هذا على الذل .

هو ذا الله يتعالى بقدرته . من مثله معلما . من فرض عليه طريقه أو من يقول له : قد فعلت شرا . اذكر أن تعظم عمله الذى يغنى به الناس . كل إنسان يبصر به . الناس ينظرونه من بعيد . هو ذا الله عظيم . . »

وفى الإنجيل يقول المسيح عيسى عليه السلام :

« لا يمكن إلا أن تأتى العثرات . ولكن ويل للذى تأتى بواسطته خير له لو طوق عنقه بحجر رحى وطرح في البحر من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار . احترزوا لأنفسكم . وإن أخطأ إليك أخوك فوبخه . وإن تاب فاغفر له . وإن أخطأ سبع مرات فى اليوم ورجع إليك سبع مرات في اليوم قائلا: أنا تائب ؛ فاغفر له . فقال الرسل للرب : زد إيماننا . فقال الرب : لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذه الجميزة انقلعى وانغرسى في البحر فتطيعكم .

ومن منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له إذا دخل من الحقل تقدم سريعا واتكىء بل ألا يقول له : أعدد ما أتعشى به وتمنطق واخدمنى حتى آكل وأشرب وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت؟ فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أمر به ؟ لا أظن. كذلك أنتم أيضا متى علتم كل ما أمرتم به فقولوا إننا عبيد بطّالون ؛ لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا » [لوقا ١٧ : ١ ـ ١٠]

يريد أن يقول :

١ ـ لابد من الامتحان فى الإيمان . للأنبياء . إما بالشكر وإما بالكفر . كما امتحن الله إيمان إبراهيم عليه السلام بذبح ولده . وفضل محبة الله على محبة الولد. وكما أعطى لسليمان عليه السلام خيراً كثيراً قال عنه : ﴿ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ

أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾

٢ ـ وأن العلماء يجب عليهم إطاعة الله ، حبا فيه : لا حبا فى نوال ثواب على دعوتهم . لأن هذا واجب عليهم ، يجب أن يؤدوه . وإلا فما هو الأجر الذى يدفعونه فى ما رزقهم الله به ؟ هل يدفعون أجر أكل أو شرب أو أجر هاء يتنفسون به ؟ فلتكن دعوتهم فى مقابل أنه خلقهم وفضلهم على كثير ممن خلق . وما يبذلونه لا يمنّون به على الله .

وفى القرآن الكريم : ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾

ومن المؤكد : أن ما حصل لأيوب قد حصل ابتلاء ؛ ليرى الناس مقدار حبه لله . وما له ؛ يحصل لكل مسلم . وقليل منهم من يصبر ومن يشكر .

وينبغى أن يفرق الناس بين نوعين من الشقاء :

النوع الأول :هو الشقاء العام الذى يتحصل عليه كل إنسان وهو يسعى على رزقه فإن الله تعالى يقول : ﴿ **فلا يخرجنكما من الجنة ؛ فتشقى** ﴾ وهذا الشقاء مع

---

(١) فى تفسير ابن كثير :

قال السدى والحسن البصرى وابن زيد : ﴿ فمن نفسك ﴾ وقال قتادة فى الآية : ﴿فمن نفسك ﴾ عقوبة لك يا بن آدم بذنبك . قال : وذكر لنا : أن النبى ﷺ قال: « لا يصيب رجلا خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله أكثر » وهذا الذى أرسله قتادة قد روى متصلا فى الصحيح . وهو : «والذى نفسى بيده . لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ولا نصب ، حتى الشوكة يشاكّها ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه »

وفى تفسير الألوسى البغدادى : « على أن كون الحدود مطلقا ؛ مكفرة ؛ خلافا . فبعضهم قال به ، فيما عدا الردة ، وبعضهم أنكره ، وبعضهم توقف فيه . لحديث =

ما فيه من الآلام ؛ لا يقدر أحد أن يجعله بسبب ذنوب ؛ لأنه ليس بسبب ذنوب ، بل بسبب السعى على الرزق . وهو قد أخرج من الجنة لهذه الآلام .

والنوع الثانى : الشقاء العام الذى لابد منه للجسد[1] . فإن الإنسان بعد سن الأربعين تبدأ قوته فى الضعف بالتدريج حتى يضعف الجسد تماما ، وهذا يسبب آلاما للإنسان رغم أنفه . ولا يمكن للإنسان أن يقول فى حالة ضعف الجسد : إنه ضَعُف بسبب خطايا ، وإن الآلام الناتجة عن هذا الضعف هى تكفير عن ذوب ؛ لأنها لو كانت تكفيراً عن ذنوب ؛ لاستوى فى هذا التكفير البار والفاجر والمؤمن والكافر ، ولو كانت تكفيراً فأى فائدة من التنبيه على التوبة ، وهى لا تكون إلا فى حالة القدرة على الفعل أو على الترك ؟ فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٨) ﴾

والشقاء العام فى طلب الرزق ؛ لابد من وقوعه . وهو إن كان بما شرعه الله؛ فإنه شقاء لا إثم فيه ، وإن كان بما حرمه الله ؛ فإنه يضاعف ؛ إذ صار بعد الشقاء العام شقاء فى نار جهنم أو فى عذاب فى الدنيا . فإن طالب الرزق من طريق

= أبى هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « لا أدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟ »

ومن ذلك يتبين : أن الآلام :

(أ) إما أن تكون بسبب الأمراض وشبهها .

(ب) وإما أن تكون بسبب العقاب على التعدى على الناس . وهذان الأمران يحدثان للمؤمن الملتزم بشريعة الله ، وللكافر الملتزم بقوانين وضعية . فما هى مزية المؤمن على الكافر ؟ لابد من البعث من الأموات لتتضح هذه المزية ؟

حلال ؛ له شقاء . وطالبه من طريق حرام ؛ له شقاءان :

الشقاء الأول : هو الشقاء العام الذى يستوى فيه كل الناس .

والشقاء الآخر : هو أنه سيحصل على عذاب أليم بسبب تعديه على ما شرعه الله . فإذا نزل عليه هذا العذاب ؛ فإنه يكون بسبب الذنوب . أما إذا نزل عليه عذاب بسبب الشقاء العام ؛ فإنه لا يكون بسبب الذنوب . وهذا الشقاء هو الذى نسبه أصحاب أيوب إليه . وقالوا له : إنك تعديت على شرعة الله ؛ فلذلك كنت مذنبا . والمصائب التى نزلت عليك ، نزلت بسبب هذا التعدى .

وقد رد عليهم أيوب بأن هذه المصائب التى تنزل . إما أنها تنزل بسبب التعدى على الشريعة ـ وما تعديت عليها ـ وإما أنها تنزل ليميز الله الخبيث من الطيب . وهى فى حالتى هذه ، امتحان إيمان ؛ لأنى لم أقترف إثما .

ومن الجائز أن يمهل الله العاصى ؛ فلا يعجل له العقوبة ؛ ليزداد إثما . ثم يعاقبه دفعة واحدة ليؤلمه ألما شديداً . وإذا أمهله لهذا السبب . فقد لا يعاقبه فى الدنيا ؛ لأن العقاب فيها غير مؤلم كنظيره فى نار جهنم . ولكن لابد من عذاب مهين .

وإذا استثنينا امتحان الإيمان ، والشقاء العام الذى له أُخرجنا من الجنة ، وكوارث الطبيعة وهى من فعل الله ويستوى فى مصائبها البار والفاجر ، وظلم الناس بعضهم لبعض ، فإن النظام العام للحياة الدنيا قائم على الإحسان والإساءة ، بالحق والعدل . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ

إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

لكن الناس لما رأوا أن الشمس ينتفع بها المؤمن والكافر ، وأن الأسباب الموصلة إلى الأرزاق يستوى فيها المؤمن والكافر ، ظنوا أنه لا يوجد إله ينتفع به أتباعه . ولذلك كفر الجهال منهم بالله . ومن الناس من رأى الخطاة فى سعة من العيش ، ورأوا الأبرار فى فقر مدقع . فساروا مع الخطاة ظانين أنه لو كان للعالم إله؛ لكان الأبرار هم الذين فى سعة من العيش ، وليس الخطاة . ولو أن الله قد بدل نظام العالم فحرم الخطاة من العيش الهنىّ فيه . لمالوا كلهم إليه . وعندئذ لا يكون تمييز ، ولا يكون المصير إلا إلى الجنة فى الدار الآخرة . كيف وقد جعل للشيطان سلطانا على الضالين من بنى آدم ؟

وقد احتال ضعاف الإيمان لما رأوا مال الله فى أيدى الظلمة بحيلة هى أن نعمل كما يعملون للنأى عن الفقر . ولاضطرارنا لهذه الحيلة ؛ سيغفر لنا . وقد توسّع فيها الضالون ، حتى أنهم طرحوا كتاب الله وراءهم ظهريا . وجاء من بعدهم من قال بتجدد التوبة بتكرر الذنب ، وأنها مقبولة ساعة الرحيل من هذه الحياة الدنيا . فماذا يقول هؤلاء فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾؟ . يقول بالوجل وهم يقولون بالرجاء . والوجل يبعث على العمل ، والرجاء يبعث على ترك العمل . فهل مراده جل شأنه من عباده وجل أم رجاء ؟ ولو فرضنا أن قاتلا ضعفت قوته بشلل فى أعصاب يديه، ومن قبل الشلل لم يسمع لناصحيه بالتوبة . إذ كان قادراً . ومن بعد الشلل قد تاب وأناب .فهل تقبل توبته ؟ إنه لم يتب عن قدرة . وإنما هو قد تاب عن ضعف . ولو كان قادراً ما كان تائبا .فلذلك لا تقبل توبته .

ومما لا ريب فيه فى أحوال بنى آدم : أن من يفعل الخير يلق الشر حاضراً أمامه من بعد أن يفعل الخير ، وأن من يفعل الشر يلق الخير حاضراً أمامه من بعد أن يفعل الشر. فإن من يخرج أعمى من حفرة وقع فيها يكون فاعلا لخير. ولن ينجو من شر مترتب على فعل هذا الخير. قد يكون من الأعمى نفسه. ومن يرى الأعمى فى الحفرة ولا يخرجه يكون فاعلا لشر ، ولابد أن يلقى عقابا بسبب هذا الشر . وتواريخ الأنبياء تدل على ذلك . فحينما قام النبى محمد ﷺ بالدعوة إلى الله. وهذا خير. وجد الشر حاضراً أمامه. إذ تألم وحزن. ثم انتصر وهذا سرور وفرح . ثم وقف أمامه الأعداء فتألم وحزن. ثم انتصر. وفرح. وهكذا. وهكذا. لا فاعل الخير ناج من الأشرار. ولا فاعل الشر ناج من الأخيار . ولو لم يكن هذا صحيحا ـ وإنه لصحيح ـ لسارع الناس كلهم إلى الخيرات ، وما تخلف منهم ولا واحد . لكننا نجد الكثيرين لا يسارعون فى الخيرات خوفا من حدوث الشر بعد الخير كما هو حال الطبيعة الذى هو من صنع الله . وهذا هو معنى المثل : «اتق شر من أحسنت إليه ».

لكن الأخيار إذ يجدون الشر غالبا لدرجة أن أكثر الناس غير مؤمنين . تفتر فيهم حرارة الإيمان . وقد يتحول بعضهم إلى الكفر ، وقد يفعلون كما يفعل الناس، حتى لا يبقى فى الأرض من المؤمنين إلا القليل .

وكل ذلك دفع الناس إلي أن يسألوا أنفسهم : أين العدل فى هذه الحياة ؟ ومن يحمى العدل ومن يرعاه ؟ أين هو الإله الذى أنبأت به الكتب ، وجاهد فى سبيله الرسل ؟ وهل الدماء التى سُفكت من المجرمين أبعدت الظلم عن الناس ؟ وهل تفسير الأنبياء للخير والشر صحيح ؟ إنهم إذا رأوا إنسانا فى صحة وعافية وكثرة مال وبنين ، يقولون : هذا فضل من الله . وإذا رأوا حاله قد تبدل يقولون : هذا ابتلاء من الله . وإذا جد واجتهد ولم تطل يده بمقدار جده واجتهاده يقولون : هذا مدخر له عند الله . وإذا رأوا كافراً موسعا عليه فى الرزق يقولون : هذا هو نصيبه فى الدنيا وماله فى الآخرة من نصيب . فلماذا لا يقال عن المؤمن الموسع عليه

كما يقال عن هذا الكافر ؟

كل هذا وشبهه تعالجه قصة أيوب عليه السلام . بأن كل شيء مرده إلى الله . وأن الإنسان لا يعلم ما ينفعه . فقد يكون الفقر خيراً له . إذ لو كان موسعا عليه فى الرزق لكان سالكا مسلك الفجار . انظر إلى قوله عليه السلام :« عنده الحكمة والقدرة . له المشورة والفطنة ، هو ذا يهدم فلا يُبنى . يغلق على إنسان فلا يُفتح ، يمنع المياه فتيبس . يطلقها فتقلب الأرض . عنده العز والفهم . له المضل والمضل . يذهب بالمشيرين أسرى ، ويحين القضاء ، يحل مناطق الملوك ويشد أحقاءهم بوثاق، يذهب بالكهنة أسرى ويقلب الأقوياء ، يقطع كلام الأمناء ، وينزع ذوق الشيوخ ، يلقى هوانا على الشرفاء ، ويرخى منطقة الأشداء ، يكشف العمائق من الظلام ، يخرج ظل الموت إلى النور ، يكثر الأمم ثم يبيدها ، يوسع للأمم ثم يجليها . . .» [أى ١٢]

ولئن تحير إنسان فى نظام العالم حتى يقترب من الشك فى الله ؛ فإنه لا يقدر على الشك فيه إذا تتبع نظام حياته . فنظام حياة الإنسان ، يعرفه بالله وحده . فإن الإنسان إذا تعود على أفعال معينة منذ صباه ، وطلب من الله تغييرها ، فإنه لا يغيرها إلا إذا غيرها الإنسان نفسه . وقد عبر الشاعر المتنبىء عن هذا المعنى بقوله :

لكل امرئ من دهره ما تعودا .·. . . . .

وفى هذا المعنى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾

ويقول النبى إرمياء عن اليهود : إنهم لكونهم قد تعودوا على الشر ؛ لا

يقدرون أن يصنعوا خيراً . ومثلهم كمثل الرجل الحبشى الأسود الذى لا يستطيع تغيير جلده بلون أبيض ، أو النمر المرقط . ذلك قوله : « وإن قلتِ فى قلبك : لماذا أصابتنى هذه ؟ لأجل عظمة إثمك ؛ هُتك ذيلاك ، وانكشف عنقا عقباك . هل يغير الكوشى[1] جلده ، أو النمر رُقَطه ؟ فأنتم أيضا لا تَقدرون[2] أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشر » [إز ١٣ : ٢٢ ـ ٣٣]

والذين عاشروا اليهود من المسلمين وغيرهم يجد التجار منهم يعترفون بالله علانية ، ويقولون : سوف يأتى الفرج من صاحب الخيمة الزرقاء . ويجد علماء منهم فى علِوم الصيدلة وما يشبهها ملحدون ، ينكرون الله علانية ، وحجة الملحدين : هى أن الدنيا لمن غلب . وهى حجة لا معنى لها . فإن الله أنزل على آبائهم كتاب موسى ، وأجرى المعجزات على يديه ، وأوقف الشمس ليشوع بن نون فتى موسى ووصيّه ، وأنزل الإنجيل على المسيح عيسى بن مريم وهو من أنبياء اليهود العظام . فمن ينكر منهم وجود الله بحجة أن الدنيا لمن غلب ؛ إنما ينكر أمراً معلوما من الدين بالضرورة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وإجابة هذا السؤال موجودة فى بدء التوراة . ونصه : « فى البدء خلق الله السموات والأرض » [تك ١ : ١] فالخالق للعالم وحده هو الله ولا شريك له . وفى الإنجيل : « الإله الحى ، الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها .

(١) أو الزنجى أو الحبشى : فى ترجمة .

(٢) تقدرون : فى ترجمة محرقة .

الذى فى الأجيال الماضية ؛ ترك جميع الأمم يسلكون فى طرقهم ، مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد . وهو يفعل خيراً . يعطينا من السماء أمطاراً وأزمنة مثمرة ، ويملأ قلوبنا طعاما وسرورا » [أع ١٤ : ١٥ ـ ١٧]

والآثار فى العالم فى أرض الحجاز والأحقاف ومدائن صالح والبتراء فى سوريا وأراضى عراق العجم والعرب وأراضى يأجوج ومأجوج فى أراضى إيران وأراضى المصريين والنوبة وبلاد السودان وسائر الأراضى ، تدل هذه الآثار على اعتراف العالم بإله خالق للعالم هو الله عز وجل ، فإذا رفع أمة وخفض أمة ، وأعزّ إنسانا وأهان إنسانا ؛ فإنه لا يقال فى مثل هذه الأحوال : إن نظام العالم غير منضبط . لأن قائل ذلك يريد من قوله هذا أن يعترض على الله بقوله : كف عن إرادتك فى هذا العالم . ولا تعز ولا تذل . وهل يرضى هذا القائل أن يكف عن إرادة نفسه ؟ فما باله يقول فى ربه مالا يرضاه لنفسه ؟

ففى سفر أيوب : « اسأل القرون الأولى ، وتأكد مباحث آبائهم ؛ لأننا نحن من أمس ، ولا نعلم ؛ لأن أيامنا على الأرض ظل . فهلا يعلمونك ؟ »

ويقول أيوب : « إنه مادامت نسمتى فىّ ، ونفخة الله فى أنفى ؛ لن تتكلم شفتاى إثما ولا يلفظ لسانى بغشّ . . . » .

والناس أمام العقيدة متفاوتون . منهم من ينكر وجود إله لهذا الكون فلا يؤمن بدين . ولا يعترف برسول ، ولا يقر بإله ، ولا يعرف حياة أخروية . وقد خاطب الله هؤلاء بقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾(١) .

وقالت امرأة أعرابية : إذا كانت البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير؛ أفلا تدل السموات والأرض على الخالق القدير ؟ وقد قال واحد من الملاحدة

(١) الطور الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

للإمام أبى حنيفة : هل رأيتَ ربك ؟ قال الإمام : سبحان ربى لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار .

قال الملحد : هل سمعتَ ربك ؟ هل لستَ ربك ، هل شممت ربك ؟ هل تذوقت ربك ؟ (أى هل أدركته بإحدى الحواس الخمسة؟) وإذا كنت لم تره ولم تسمعه ولم تلمسه ؛ فمن أين أثبت أنه موجود ؟

قال الإمام للملحد : هل رأيت عقلك ؟ قال لا . هلى سمعت عقلك ؟ هل لست عقلك ؟ قال : لا . قال الإمام : أعاقل أنت أم مجنون ؟قال : أنا عاقل . قال : فأين عقلك ؟ قال : أنا لا أراه ولكنى أستدل عليه بتصرفاتى فأنا لا أتصرف تصرف المجانين .

قال الإمام : حكمتَ على وجود عقلك بتصرفاتك . فلم لا تحكم على وجود الله بتصرفاته فى الكون ؟ : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

وسئل الإمام الشافعى عن السبب الذى جعله عالما . فقال : التفكير . وبالأخص تفكرى فى ورق التوت . فإنى نظرت إلى النحل يأكلها فيخرج منه ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾(٢) ودودة القز تأكلها فتخرج منها حريراً

---

(١) سورة يس ٤٠ .

(٢) النحل ٦٩ . واعلم : أن فى العسل شفاء . ولكن المراد من قوله : ﴿ فيه شفاء للناس﴾ : القرآن ؛ لقوله فى أول الكلام : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب ﴾ ثم عدد دلائل قدرته ، ثم رجع إلي القرآن فقال : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ أى لليهود من الغل والحسد . وكلمة ﴿ الناس ﴾ فى القرآن لا تأتى إلا لبنى إسحق ، واليهود منهم . وفى الآيات ما يدل على اليهود وهو ﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾النحل ٦٤ وقوله ﴿ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾النحل ٦٤ موافق لقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ النمل ٧٦

ناعم الملمس ، والغزالة تأكلها فتخرج منها مسكا ، والبغل يأكلها فيخرج روثا ، فمن الذى وضع فى جوف هؤلاء تلك الآلة التى تخرج من المادة الواحدة عدة أشياء؟

والتقى أعرابى برجل ينكر وجود الله . فقال له : أنت ضيف علىّ وطلب من ابنه أن يحلب الناقة أمام الضيف ، وأن يقدم له لبنها ، ثم قال للضيف : معذرة أننا نقدم لك لبنا بدون زبدة . فقال الضيف : كيف هذا ؟ إن الزبدة به فقد حلب أمامى ؟ فقال الأعرابى : ولكننى لا أرى الزبدة . فقال الضيف : إننا عرفنا ذلك بما سمعناه من الناس ؛ فهى مختلطة بكل قطرة لبن . فقال الأعرابى : شهدتَ بوجود الزبدة مع أنك لم ترها . أفلا تشهد بوجود الله فى الكون وإن كنت لا تراه ؟ وصدقت الناس ، فيكف لا تصدق رسل الله فيما بلغوه عن الله رب العالمين ؟

ولأننا نجد فى العالم الخير والشر . يتعاقبان مع الأبرار والأشرار . كتعاقب الخير والشر ، ثم الخير ، ثم الموت على أيوب عليه السلام ؛ ظن الجهال أن للخير إله وللشر إله ، وعبدوا إله الشر ، وقربوا إليه القرابين ؛ اتقاء لشره ، وعبدوا إله الخير وقربوا إليه القرابين ؛ ليديم خيره عليهم . ومنهم من عبد الاثنين معا ؛ لدوام الخير ومنع الشر . وقد عالج الأنبياء هذه المشكلة . بقولهم : إنه لا يوجد إلا إله واحد ، هو خالق الخير وخالق الشر . جاعل الظلمة وجاعل النور ، وأنه خيّر ولا يصدر عنه إلا الخير ، وأن الشرور التى تحدث في العالم تحدث بسبب جهل الناس وتعدى بعضهم بعض . أما هو فإنه بعباده رءوف رحيم . ولذلك يجب فى حالة الخير أن يؤمن به المسرور بالنعمة ، ويجب أن يؤمن به المتضايق بالنقمة . لأن العالم وما فيه ملك له . والكل من عنده .

ففى القرآن الكريم : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ

سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴾

وفى القرآن الكريم : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

وفى القرآن الكريم : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾

وفى التوراة : « أنا الرب ليس آخر . مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر . أنا الرب صانع كل هذه » إلى أن قال : « إليك يعبرون ، ولك يكونون ، خلفك يمشون ، بالقيود يمرون ، ولك يسجدون . إليك يتضرعون. قائلين : فيكِ وحدكِ الله ، وليس آخر » [إش ٤٥]

وفى الإنجيل : « وإن كان البار بالجهد ؛ يخلص . فالفاجر والخاطئ أين يظهران ؟فإذاً الذين يتألمون بحسب مشيئة الله ؛ فليستودعا أنفسهم ، كما لخالق أمين، فى عمل الخير » [١بط ٤ :١٨ ـ ١٩]

ويقول عيسى عليه السلام : إن الله يقول : أنا فعال لما أريد ، وأنا أرحم من أريد أن أرحمه ، وأُقسّى قلب من أريد أن ألعنه ، ليثبت أن الخير والشر منه وحده، وليتجنب البشر الذهاب إلى أنه توجد آلهة أخرى سواه . يظنون أنها تعمل الشر ؛ فيعبدونها اتقاء لشرها . ولقد سئل عن أفعال الإنسان أهو مخير أم مسير ؟ وأجاب بأنه مخير ؛ ليدرك أن الله منحه حرية فوق حياته ، بها يفعل ما يفعل ؛ تفضلا منه

ورحمة . وقد سئل هذا السؤال : إذا كان الإنسان حراً ؛ فإن التنبيه على مجيئ محمد رسول الله ﷺ من قبل مجيئه ؛ يدل على أن في الكون أشياء تحدث رغم أنف الإنسان ؛ فيكون فى حالة حدوثها مجبراً ، فكيف مع ذلك تصرح بمذهب الحرية ؟ أجاب بأن ذلك سبق اصطفاء من الله . والنص التالى يوضح ذلك :

فى الأصحاح الخامس والخمسون بعد المائة وما بعده من إنجيل بَرنابا :

« حينئذ دعا رئيس الكهنة سرا كاهنين شيخين وأرسلهما إلى يسوع الذى كان قد خرج من الهيكل وكان جالسا فى رواق سليمان . منتظراً ليصلى صلاة الظهيرة .

وكان بجانبه تلاميذه مع جم غفير من الشعب . فاقترب الكاهنان من يسوع وقالا : لماذا أكل الإنسان حنطة وثمراً ؟ هل أراد الله أن يأكلهما أم لا ؟ وإنما قالا هذا ليجرباه . لأنه لو قال : إن الله أراد ذلك لأجابا : لماذا نهى عنهما ؟ وإذا قال: إن الله لم يرد ذلك يقولان : إن للإنسان قوة أعظم من الله لأنه يعمل ضد إرادة الله . أجاب يسوع : إن سؤالكما كطريق فى جبل ذى جرف عن اليمين وعن اليسار ولكن أسير فى الوسط . فلما سمع الكاهنان ذلك تحيرا لأنهما أدركا أن يسوع قد فهم قلبيهما . ثم قال يسوع : لما كان كل إنسان محتاجا كان يعمل كل شيء لأجل منفعته . ولكن الله الذى لا يحتاج إلى شيء ؛ عمل بحسب مشيئته . ولذلك لما خلق الإنسان خلقه حرا ليعلم أن ليس لله حاجة إليه . كما يفعل الملك الذى يعطى حرية لعبيده ليظهر ثروته وليكون عبيده أشد حبا له .

١٤ إذاً قد خلق الله الإنسان حراً لكى يكون أشد حباً لخالقه وليعرف جوده . لأن الله وهو قادر على كل شيء محتاج إلى الإنسان فإنه إذ خلقه بقدرته على كل شيء تركه حرا بجوده على طريقة يمكنه معها مقاومة الشر وفعل الخير . وأن الله على قدرته على منع الخطيئة لم يرد أن يضاد جوده إذ ليس عند الله تضاد . فلما عملت قدرته على كل شيء وجوده عملهما فى الإنسان لم يقاوم الخطيئة فى

الإنسان، لكى تعمل فى الإنسان رحمة الله وبره .وآية صدقى : هى أن أقول لكما: إن رئيس الكهنة قد أرسلكما لتجربانى وهذا هو ثمر كهنوته. فانصرف الشيخان وقصا كل شيء على رئيس الكهنة الذى قال : إن وراء ظهر هذا الشخص الشيطان الذى يلقنه كل شيء . لأنه يطمح إلى ملكية أسرائيل ولكن الأمر فى ذلك لله .

ولما اجتاز يسوع من الهيكل بعد أن صلى صلاة الظهيرة وجد أكمها . فسأله تلاميذه قائلين : أيها المعلم من أخطأ فى هذا الإنسان حتى ولد أعمى ؟ أبوه أم أمه؟ أجاب يسوع : لا أبوه أخطأ فيه ولا أمه . ولكن الله خلقه هكذا شهادة للإنجيل. وبعد أن دعا الأكمه إليه تفل على الأرض وصنع طينا ووضعه على عينى الأكمه . وقال له : اذهب إلى بركة سلوام واغتسل . فذهب الأكمه ولما اغتسل أبصر ، فبينما كان راجعا إلى البيت قال كثيرون من الذين التقوا به : لو كان هذا الرجل أعمى لقلت بكل تأكيد : إنه هو الذى كان يجلس على الباب الجميل من الهيكل. وقال آخرون : إنه هو ولكن كيف أبصر ؟

فسألوه قائلين : هل أنت الأكمه الذى كان يجلس على الباب الجميل من الهيكل ؟ أجاب : إنى أنا هو . ولماذا ؟ قالوا : كيف نلت بصرك ؟ أجاب : إن رجلا صنع طينا تافلا على الأرض ووضع هذا الطين على عينى ، وقال لى : اذهب واغتسل فى بركة سلوام . فذهبت واغتسلت فصرت الآن أبصر . تبارك إله إسرائيل. ولما عاد الرجل الذى كان أكمه إلي الباب الجميل من الهيكل امتلأت أورشليم كلها بالخبر . لذلك أحضر إلى رئيس الكهنة الذى كان يأتمر مع الكهنة والفريسيين على يسوع . فسأله رئيس الكهنة قائلا : هل ولدت أعمى أيها الرجل ؟ أجاب : نعم . فقال رئيس الكهنة : ألا فأعط مجداً لله وأخبرنا أى نبى ظهر لك فى الحلم وأنالك نوراً ؟ أهو أبونا إبراهيم أم موسى خادم الله أم نبى آخر ؟ لأن غيرهم لا يقدر أن يفعل شيئا نظير هذا . فأجاب الرجل الذى ولد أعمى : إنى لم أر فى حلم ولم يشفنى. لا إبراهيم ولا موسى ولا نبى آخر . ولكن بينا أنا جالس

على باب الهيكل أدنانى رجل إليه . وبعد أن صنع طينا من تراب بتفله وضع بعضا من ذلك الطين على عينى وأرسلنى إلي بركة سلوام لأغتسل . فذهبت واغتسلت وعدت بنور عينى . فسأله رئيس الكهنة عن اسم ذلك الرجل .

فأجاب الرجل الذى ولد أعمى : إنه لم يذكر لى اسمه . ولكن رجلا رآه نادانى وقال : اذهب واغتسل كما قال ذلك الرجل . لأنه يسوع الناصرى نبى إله إسرائيل وقدوسه . فقال حينئذ رئيس الكهنة : لعله أبرأك اليوم أى السبت . أجاب الأعمى : إنه أبرأنى اليوم . فقال رئيس الكهنة : انظروا الآن كيف أن هذا الرجل خاطئ لأنه لا يحفظ السبت !

أجاب الأعمى : لست أعلم أخاطئ هو أم لا؟ إنما أعلم هذا وهو أنى كنت أعمى فأنارنى . فلم يصدق الفريسيون هذا . لذلك قالوا لرئيس الكهنة : أرسل وادع أباه وأمه لأنهما يقولان لنا الصدق . فدعوا أبا الرجل الأكمه وأمه . فلما حضرا سألهما رئيس الكهنة قائلا : هل هذا الرجل ابنكما ؟ أجابا : إنه ابننا حقا. فقال حينئذ رئيس الكهنة : يقول: إنه ولد أعمى والآن يبصر فكيف حدث هذا الشيء ؟ أجاب أبو الرجل الذى ولد أعمى وأمه : إنه ولد أعمى حقا ولكن لا نعلم كيف نال النور ؟ هو كامل السن اسألوه يقول لكم الصدق . فصرفوهما .

وعاد الرئيس فقال للرجل الذى ولد أعمى : أعط مجداً لله وقل الصدق . وكان أبو الرجل الأعمى وأمه خائفين أن يتكلما . لأنه صدر أمر من مجلس الشيوخ الرومانى أن لا يجوز لإنسان أن يتحزب ليسوع نبى اليهود وإلا فالعقاب الموت . وهو أمر استصدره الوالى ، لذلك قالا : هو كامل السن اسألوه . فقال حينئذ رئيس الكهنة للرجل الذي ولد أعمى : أعط مجداً لله . قل الصدق لأننا نعلم أن هذا الرجل الذى تقول إنه شفاك ؛ خاطئ . أجاب الرجل الذى ولد أعمى : لست أعلم أخاطيء هو ، إنما أعلم هذا أننى كنت لا أبصر فأرانى . ومن المؤكد أنه منذ ابتداء العالم حتى هذه الساعة لم ينر أكمه . والله لا يصيخ السمع إلى الخطأة .

فقال الفريسيون : ماذا فعل لما أنارك ؟ حينئذ تعجب الرجل الذى ولد أعمى من عدم إيمانهم وقال : لقد أخبرتكم فلماذا تسألوننى أيضا ؟ أتريدون أنتم أن تصيروا تلاميذ له ؟ فوبخه حينئذ رئيس الكهنة قائلا : إنك ولدت بجملتك فى الخطيئة أفتريد أن تعلمنا ؟ . اغرب وصر أنت تلميذاً لهذا الرجل . أما نحن فإننا تلاميذ موسى ونعلم أن الله كلم موسى . وأما هذا الرجل فلا نعلم من أين هو . فأخرجوه من المجمع والهيكل ونهوه عن الصلاة مع الطاهرين بين إسرائيل .

وذهب الرجل الذى ولد أعمى ليجد يسوع . فعزاه قائلا : إنك لم تبارك فى زمن مّا كما أنت الآن . لأنك مبارك من إلهنا الذى تكلّم على لسان داود أبينا ونبيه فى أخلاّء العالم قائلا : هم يلعنون وأنا أبارك . وقال على لسان ميخا النبى : إنى ألعن بركتك . لأن التراب لا يضاد الهواء ولا الماء النار ولا النور الظلام ولا البرد الحرارة ولا المحبة البغضاء كما تضاد إرادة الله إرادة العالم . فسأله لذلك التلاميذ قائلين : ما أعظم كلامك أيها السيد . فقل لنا المعنى لأننا حتى الآن لم نفهم . أجاب يسوع : متى عرفتم العالم ترون أنى قلت الحق . وهكذا ستعرفون الحق فى كل نبى .

فاعلموا إذاً أن هنالك ثلاثة أنواع من العوالم متضمنة فى اسم واحد . الأول يشير إلى السموات والأرض مع الماء والهواء والنار وكل الأشياء التى هى دون الإنسان فيتبع هذا العالم فى كل شيء إرادة الله كما يقول داود : لقد أعطاها الله أمراً لا تتعداه . والثانى يشير إلى كل البشر كما أن بيت فلان لا يشير إلى الجدران بل إلى الأسرة . فهذا العالم يحب الله أيضا . لأنهم بالطبيعة يتوقون إلى الله قدر ما يستطيع كل أحد يتوق بحسب الطبيعة إلي الله وإن ضلوا في طلب الله . أفتعلمون لماذا يتوق الجميع إلى الله ؟ لأنهم لا يتوقون جميعا إلى صلاح غير متناه بدون أدنى شر . وهذا هو الله وحده . لذلك أرسل الله الرحيم أنبياءه إلى هذا العالم لخلاصه . أما الثالث فهو حال سقوط الإنسان فى الخطيئة التى تحولت إلى

شريعة مضادة لله خالق العالم . فهذا يصير الإنسان نظير الشياطين أعداء الله . فماذا تظنون وهذا العالم يكره الله كرها شديداً فى مصير الأنبياء لو أحبوا هذا العالم . حقا إن الله ليأخذ منهم نبوتهم .

وماذا أقول ؟ لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته لو خامر رسول الله حب هذا العالم الشرير متى جاء إليه لأخذ الله منه بالتأكيد كل ما وهبه عند خلقه وجعله منبوذاً . لأن الله بهذا المقدار مضاد للعالم .

أجاب التلاميذ : يا معلم إن كلامك لعظيم جداً فارحمنا لأننا لا نفهمه . قال يسوع : أيخيل لكم أن الله قد خلق رسوله ليكون نداً له يريد أن يجعل نفسه مساويا لله ؟ كلا ثم كلا . بل عبده الصالح الذى لا يريد ما لا يريده الله . وإنكم لا تقدرون أن تفقهوا هذا لأنكم لا تعرفون ما هى الخطيئة . فأصيخوا السمع لكلامى . الحق الحق أقول لكم : إن الخطيئة لا يمكن أن تنشأ فى إنسان إلا مضادة لله . إذ ليست الخطيئة إلا ما لا يريده الله ؟ فإن كل ما يريده أجنبى عن الخطيئة . فلو اضطهدنى رؤساء الكهنة والكنة مع الفريسيين لأن شعب إسرائيل دعانى إلها لفعلوا شيئا يرضى به الله ولكافأهم الله . ولكن الله مقتهم لأنهم يضطهدوننى لسبب مضاد وهو أنهم لا يريدون أن أقول الحق . وكم قد أفسدوا بتقليدهم كتاب موسى وكتاب داود نبيى الله وخليله . وإنهم لهذا يكرهوننى ويودون موتى .

إن موسى قتل ناسا وأخآب قتل ناسا . قولوا لى : أيعد هذا قتلا من كليهما؟ لا البتة . لأن موسى قتل الناس ليبيد عبادة الأصنام وليبقى على عبادة الإله الحقيق . ولكن أخآب قتل ناسا ليبيد عبادة الإله الحقيقى وليبقى على عبادة الأصنام لذلك تحول قتل موسى للناس ضحية على حين تحول قتل أخآب تدنيساً . فإن ذات العمل الواحد أخذت نتيجتين متضادتين . لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته لو كلم الشيطان الملائكة ليرى كيف أحبوا الله لما رذله الله . ولكنه منبوذ لأنه حاول أن يبعدهم عن الله . حينئذ أجاب الذى يكتب : فكيف يجب إذاً أن يُفهم ما قيل فى

ميخا النبى بشأن الكذب الذى أمر الله الأنبياء الكذبة أن يتفوهوا به . كما هو مكتوب فى كتاب ملوك إسرائيل ؟ أجاب يسوع : اتل يا برنابا بالاختصار كل ما حدث لترى الحق جليا .

حينئذ قال الذى يكتب : إن دانيال(١) النبى لما وصف تاريخ ملوك إسرائيل وطغاتهم كتب هكذا : اتحد ملك إسرائيل مع ملك يهوذا ليحاربا بنى بلّيعال أى المنبوذين الذين كانوا العمّونيين . ولما كان يهوشافاط ملك يهوذا وأخآب ملك إسرائيل جالسين كلاهما على عرش فى السامرة وقف أمامهم أربعمائة نبى كذاب . فقالوا لملك إسرائيل فقالوا لملك إسرائيل : اصعد ضد العمونيين لأن الله سيدفعهم إلى يديك وستبدد عمون . حينئذ قال يهوشافاط : هل يوجد نبى هنا لإله آبائنا ؟ أجاب أخآب : يوجد واحد فقط شرير لأنه دائما يتنبأ بالشر على . ولقد وضعته فى السجن وهو إنما قال يوجد واحد فقط لأن كل الذين وجدوا قتلوا بأمر أخآب . حتى أن الأنبياء كما قلت يا معلم هربوا إلى رؤوس الجبال حيث لا يسكن بشر . حينئذ قال يهوشافاط : أحضره إلى هنا ولنر ما يقول .

لذلك أمر أخآب أن يحضر ميخا إلى هناك . فأتى بقيود فى رجليه ووجهه مضطرب كشخص يعيش بين الموت والحياة . فسأله أخآب قائلا : تكلم يا ميخا باسم الله . أنصعد ضد العمونيين ؟ أيدفع الله مدنهم إلى أيدينا ؟ أجاب ميخا : اصعد اصعد . لأنك ستصعد مفلحا وتنزل أشد فلاحا . حينئذ أطرى الأنبياء الكذبة ميخا قائلين : إنه نبى صادق لله وكسروا القيود من رجليه . أما يهوشافاط الذى كان يخاف إلهنا ولم يحن ركبتيه قط للأصنام فإنه سأل ميخا قائلا : قل الحق يا ميخا إكراما لإله آبائنا كما رأيت عقبى هذه الحرب . أجاب ميخا : إنى لا أخشى وجهك يا يهوشافاط لذلك أقول لك : إنى رأيت شعب إسرائيل كغنم لا راعى لها. حينئذ قال أخآب مبتسما ليهوشافاط : لقد أخبرتك أن هذا الرجل لا يتنبأ إلا بسوء ولكنك لم تصدق ذلك . فقال حينئذ كلاهما : كيف تعلم هذا يا ميخا ؟

(١) ١ مل ٢٢ : ٣ ـ ٣١

أجاب ميخا : خيل إلىّ أن قد التأمت ندوة من الملائكة في حضرة الله . وسمعت الله يقول هكذا : من يغوى أخآب ليصعد ضد عمون ويقتل . فقال واحد شيئا وقال آخر شيئا آخر . ثم أتى ملاك فقال : يا رب أنا أحارب أخآب فأذهب إلي أنبيائه الكذبة وألقى كذبا فى أفواههم وهكذا يصعد ويقتل . فلما سمع الله هذا قال : اذهب وافعل هكذا فإنك تفلح . فحنق حينئذ الأنبياء الكذبة . فصفع رئيسهم خد ميخا قائلا : يا منبوذ الله متى عبر ملاك الحق من عندنا وجاء إليك ؟ قل لنا متى جاء إلينا الملاك الذى حمل الكذب ؟ أجاب ميخا : إنك ستعرف متى هربت من بيت إلى بيت خوفا من القتل أنك قد أغويت ملكك . فتغيظ حينئذ أخآب وقال: أمسكوا ميخا وضعوا القيود التى كانت فى رجليه على عنقه وأقصروه على خبز الشعير والماء إلى حين عودتى . لأنى لا أعرف الآن بأية ميتة أنكل به . فصعدوا وتم الأمر حسب كلمة ميخا . لأن ملك العمونيين قال لخدمه : احذروا أن تحاربوا ملك يهوذا أو عظماء إسرائيل بل اقتلوا عدوى أخآب ملك إسرائيل .

حينئذ قال يسوع : قف ههنا لأنه يكفى لغرضنا .

فقال يسوع : أسمعتم كل شيء ؟ أجاب التلاميذ : نعم يا سيد . فقال مِنْ ثَمّ يسوع : إن الكذب خطيئة ولكن القتل خطيئة أعظم . لأن الكذب خطيئة تختص بالذى يتكلم . ولكن القتل على كونه يختص بالذى يرتكبه هو يهلك أيضا أعز شيء لله هنا على الأرض . أى الإنسان . ويمكن مداواة الكذب بقول ضد ما قد قيل على حين لا دواء للقتل لأنه ليس بممكن منح الميت حياة . قولوا لى إذاً : هل أخطأ موسى عبد الله بقتل كل الذين قتلهم .

أجاب التلاميذ : حاش لله حاش لله أن يكون موسى قد أخطأ بطاعته لله الذى أمره . فقال حينئذ يسوع : وأنا أقول : حاش لله أن يكون قد أخطأ ذلك الملاك الذى خدع أنبياء أخآب الكذبة بالكذب . لأنه كما أن الله يقبل قتل الناس ذبيحة فهكذا قبل الكذب حمدا . الحق أقول لكم : كما يغلط الطفل الذى يصنع

حذاءه بقياس رجلى جبار هكذا يغلط من يجعل الله خاضعا للشريعة كما أنه هو نفسه خاضع لها من حيث هو إنسان . فمتى اعتقدتم أن الخطيئة إنما هى ما لا يريده الله تجدون حينئذ الحق كما قلت لكم . وعليه لما كان الله غير مركب وغير متغير فهو أيضا غير قادر أن يريد وأن لا يريد الشيء الواحد . لأنه بذلك يصير تضاد فى نفسه يترتب عليه ألم لا يكون مباركا إلى ما لا نهاية له . **أجاب فيلبُّس : ولكن كيف يجب فهم قول النبى عاموس إنه لا يوجد شر فى المدينة لم يصنعه الله ؟** أجاب يسوع : انظر الآن يا فيلبس ما أشد خطر الاعتماد على الحرف كما يفعل الفريسيون الذين قد انتحلوا لأنفسهم اصطفاء الله للمختارين على طريقة يستنتجون منها فلا أن الله غير بار وأنه مخادع وكاذب ومبغض للدينونة التى ستحل بهم .

لذلك أقول : إن عاموس نبى الله يتكلم هنا عن الشر الذى يسميه العالم شرا. لأنه لو استعمل لغة الأبرار لما فهمه العالم . لأن كل البلايا حسنة . إما حسنة لأنها تظهر الشر الذى فعلناه . وإما حسنة لأنها تمنعنا عن ارتكاب الشر . وإما حسنة لأنها تعرف الإنسان حال هذه الحياة لكى نحب ونتوق إلى الحياة الأبدية . فلو قال النبى عاموس : ليس فى المدينة من خير إلا كان الله صانعه ؛ لكان ذلك وسيلة لقنوط المصابين متى رأوا أنفسهم فى المحن والخطاة فى سعة من العيش . وأنكى من ذلك أنه متى صدق كثيرون أن للشيطان سلطة على الإنسان خافوا الشيطان وخدموه تخلصا من البلايا . فلذلك فعل عاموس ما يفعله الترجمان الرومانى الذى لا ينظر فى كلامه كأنه يتكلم فى حضرة رئيس الكهنة بل ينظر إلى إرادة ومصلحة اليهودى الذى لا يعرف التكلم باللسان العبرانى .

لو قال عاموس : ليس فى المدينة من خير إلا كان الله صانعه لكان لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته قد ارتكب خطأ فاحشا . لأن العالم لا يرى خيراً سوى الظلم والخطايا التى تصنع فى سبيل الباطل . وعليه يكون الناس أشد توغلا فى الإثم لأنهم يعتقدون أنه لا توجد خطيئة أو شر لم يصنعه الله وهو أمر تتزلزل

لسماعة الأرض . وبعد أن قال يسوع هذا حصل توا زلزال عظيم إلى حد سقط معه كل أحد كأنه ميت . فأنهضهم يسوع قائلا : انظروا الآن إذا كنت قد قلت لكم الحق . فليكفكم هذا إذاً . أنه لما قال عاموس : إن الله صنع شراً فى المدينة مكلما العالم فهو إنما تكلم عن البلايا التى لا يسميها شراً إلا الخطأة .

ولنأت الآن على ذكر سبق الإصطفاء الذى تريدون أن تعرفوه والذى سأكلمكم عنه غداً على مقربة من الأردن على الجانب الآخر إن شاء الله .

وذهب يسوع مع تلاميذه إلى البرية وراء الأردن . فلما انقضت صلاة الظهيرة جلس بجانب نخلة وجلس تلاميذه تحت ظل النخلة . حينئذ قال يسوع: أيها الأخوة إن سبق الاصطفاء لسر عظيم حتى أنى أقول لكم الحق : إنه لا يعلمه جليا إلا إنسان واحد فقط . وهو الذى تنطلع إليه الأمم(١) الذى تتجلى له أسرار الله تجليا فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم . لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه النخلة . بلى إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا تقى رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان . أجاب التلاميذ : يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذى تتكلم عنه الذى سيأتى إلى العالم ؟

أجاب يسوع بابتهاج قلب : إنه محمد رسول الله . ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التى يأتى بها . كما يجعل المطر الأرض تُعطى ثمراً بعد انقطاع المطر زمنا طويلا . فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله وهى رحمة ينشرها الله رذاذاً على المؤمنين كالغيث .

إنى أشرح لكم الآن ذلك النزر القليل الذى وهبنى الله معرفته بشأن سبق هذا الاصطفاء نفسه : يزعم الفريسيون أن كل شىء قُدر على طريقة لا يمكن معها لمن كان مختاراً أن يصير منبوذا . ومن كان منبوذا لا يتسنى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختاراً . وأنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذى يسير فيه

(١) سفر حَجَّى ٢ : ٧ .

المختارون إلى الخلاص هكذا قدر أن تكون الخطيئة هى الطريق الذى يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك .

لُعِن اللسان الذى نطق بهذا واليد التى سطرته لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان. فيمكن للمرء على هذا أن يعرف شاكلة فريسى هذا العصر لأنهم خدمة الشيطان الأمناء . فماذا يمكن أن يكون معنى سبق الاصطفاء سوى أنه إرادة مطلقة تجعل للشىء غاية. وسيلة الوصول إليها فى يد المرء. فإنه بدون وسيلة لا يمكن لأحد تعيين غاية. فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيت وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقط بل يعوزه موطىء القدم من الأرض . لا أحد البتة . فسبق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالأولى إذا استلزم سلب حرية الإرادة التى وهبها الله للإنسان بمحض جوده . فمن المؤكد أننا نكون إذ ذاك آخذين فى إثبات مكرهة لا سبق اصطفاء .

أما كون الإنسان حرا فواضح من كتاب موسى لأن إلهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء قال هكذا : ليست وصيتى فى السماء لكى تتخذ لك عذراً قائلا : من يذهب ليحضر لنا وصية الله ؟ ومن يا ترى يعطينا قوة لنحفظها ؟ ولا هى وراء البحر لكى تعد نفسك كما تقدم . بل وصيتى قريبة من قلبك حتى تحفظها متى شئت . قولوا لى : لو أمر هيرودس شيخا أن يعود يافعا ومريضا أن يعود صحيحا ثم إذا هما لم يفعلا ذلك أمر بقتلهما أفيكون هذا عدلا ؟ أجاب التلاميذ : لو أمر هيرودس بهذا لكان أعظم ظالم وكافر . حينئذ تنهد يسوع وقال : أيها الأخوة ما هذه إلا ثمار التقاليد البشرية . لأنه بقولهما إن الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها أن يصير مختاراً يجدفون على الله كأنه طاغ وظالم لأنه يأمر الخاطىء أن لا يخطىء وإذا أخطأ أن يتوب . على أن هذا القدر ينزع من الخاطىء القدرة على ترك الخطيئة فيسلبه التوبة بالمرة .

ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبى : لعمرى يقول إلهكم : لا أريد موت الخاطىء بل أود أن يتحول إلي التوبة . أيقدر الله إذاً ما لا يريده ؟ تأملوا

ما يقول الله وما يقول فريسيو الزمن الحاضر . يقول الله أيضا على لسان النبى إشعياء : دعوت فلم تصغوا إلىّ . وما أكثر ما دعا الله .

اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبى نفسه : بسطت يدى طول النهار إلى شعب لا يصدقنى بل يناقضنى . فإذا قال فريسيونا : إن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختاراً فهل يقولون سوى أن الله يستهزىء بالبشر كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئا أبيض وكما لو استهزأ بأصم يكلمه فى أذنيه ؟ أما كون المختار يمكن أن ينبذ فتأملوا ما يقول إلهنا على لسان حزقيال النبى . يقول الله : لعمرى إذا رجع البار عن بره وارتكب الفواحش فإنه يهلك ولا أذكر فيما بعد شيئا من بره فإن بره سيخذله أمامى فلا ينجيه وهو متكل عليه . أما نداء المنبوذين فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع سوى هذا ؟ إنى أدعو شعبا غير مختار فأدعوهم مختارين .

إن الله صادق ولا يقدر أن يكذب وأن الله لما كان هو الحق فهو يقول الحق . ولكن فريسى الوقت الحاضر يناقضون الله كل المناقضة بتعليمهم .

أجاب أندراوس : ولكن كيف يجب أن يُفهم ما قال الله لموسى من أنه يرحم من يرحم ويقسى من يقسى ؟ أجاب يسوع : إنما يقول الله هذا لكيلا يعتقد الإنسان أنه خلص بفضيلته . بل ليدرك أن الحياة ورحمة الله قد منحهما له الله من جوده . ويقوله ليتجنب البشر الذهاب إلى أنه توجد آلهة أخرى سواه . فإذا هو قسّى فوعون فإنما فعله لأنه نكل بشعبنا وحاول أن يبغى عليه بإبادة كل الأطفال الذكور من إسرائيل حتى كاد موسى يخسر حياته .

وعليه أقول لكم : حقا إن أساس القدر إنما هو شريعة الله وحرية الإرادة البشرية . بل لو قدر الله أن يخلّص العالم كله حتى لا يهلك أحد ؛ لما أراد أن يفعل ذلك. لكيلا يجرد الإنسان من الحرية التى يحفظها له ليكيد الشيطان حتى يكون لهذه الطينة التى امتهنها الروح الشيطان، وإن أخطأت كما فعل الروح؛ قدرة على

التوبة والذهاب للسكن فى ذلك الموضع الذى طرد منه الروح . فأقول : إن إلهنا يريد أن تتبع رحمته حرية إرادة الإنسان . ولا يريد أن تترك قدرته غير المتناهية المخلوق . وهكذا لا يقدر أحد فى يوم الدين أن يعتذر عن خطاياه . لأنه يتضح له حينئذ كم فعل الله لتجديده وكم وكم قد دعاه إلى التوبة .

وعليه فإذا كانت أفكاركم لا تطمئن لهذا وودتم أن تقولوا أيضا : لماذا هكذا؟ فإنى أوضح لكم لماذا ؟ وهو هذا : قولوا لى : لماذا لا يمكن للحجر أن يستقر على سطح الماء مع أن الأرض برمتها مستقرة على سطح الماء ؟ قولوا لى : لماذا كان التراب والهواء والماء والنار متحدين بالإنسان ومحفوظين على وفاق ؟ مع أن الماء يطفىء النار والتراب يهرب من الهواء حتى أنه لا يقدر أحد أن يؤلف بينهما. فإذا كنتم إذاً لا تفقهون هذا بل إن كل البشر من حيث هم بشر لا يقدرون أن يفقهوه فكيف يفقهون أن الله خلق الكون من لا شىء بكلمة واحدة ؟ كيف يفقهون أزلية الله ؟

حقا لا يتاح لهم أبداً أن يفقهوا هذا . لأنه لما كان الإنسان . محدودا ويدخل فى تركيبه الجسد الذى هو كما يقول النبى سليمان : قابل للفساد بضغط النفس . ولما كانت أعمال الله مناسبة لله فكيف يمكن للإنسان إدراكها ؟ فلما رأى إشعياء نبى الله هذا صرخ قائلاً : حقا إنك لإله محتجب . ويقول عن رسول الله كيف خلقه الله ؟: أما جيله فمن يصفه ؟ ويقول عن عمل الله : من كان مشيره فيه ؟ وعن. لذلك يقول الله للطبيعة البشرية : كما تعلو السماء عن الأرض هكذا تعلو طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم . لذلك أقول لكم : إن كيفية القدر غير واضحة للإنسان وإن كان ثبوته حقيقيا كما قلت لكم . أفيجب إذاً على الإنسان أن ينكر الواقع لأنه لا يقدر أن يعرف كيفيته ؟ حقا إنى لم أجد أحدا يرفض الصحة وإن لم يمكن إدراك كيفيتها . لأنى لا أدرى حتى الآن كيف يشفى الله المرضى بواسطة

لمسى » [برنابا ١٥٥ ـ ١٦٧]

***

وفى الشعر من المعانى المستفادة من قصة أيوب عليه السلام :

تبّا لطالب دنيا لا بقاء لها
كأنما هى فى تصريفها حلم
صفاؤها كدر . سراؤها ضرر
أمانها غدر . أنوارها ظلم
شبابها هرم . راحاتها سقم
لذاتها ندم . وجدانها عدم
فخل عنها، ولا تركن لزهرتها
فإنها نعم فى طيها نقم

لسان الدين ابن الخطيب

***

ليس كل الخير يأتى عاجلا
إنما الخير حظوظ ودَرَج
لا يزال المرء ما عاش . له
حاجة فى الصدر دأبا تعتلج
رب أمر قد تضايقت به
تم يأتى الله منه بالفرج

أبو العتاهية

أيوب عليه السلام
فى
القرآن الكريم

أولا : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال سكنٌ وعدى بن زيد : يا محمد ما تعلم أن الله أنزل على بشر من شىء بعد موسى . فأنزل الله فى ذلك من قولهما : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده** ﴾ إلى آخر الآيات . وقال ابن جرير : حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى قال : أنزل الله : ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء** ﴾ إلى قوله ﴿ **وقولهم على مريم بهتاناً عظيما** ﴾ قال : فلما تلاها عليهم - يعنى على اليهود - وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة جحدوا كل ما أنزل الله و ﴿ **قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء** ﴾، ولا موسى ولا عيسى ولا على نبى ﴿ **من شىء** ﴾ قال : فحل حبوته فقال ﴿ **ولا على أحد** ﴾ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء** ﴾ وفى هذا الذى قاله محمد بن كعب القرظى نظر فإن هذه الآية التى فى سورة الأنعام مكية وهذه الآية التى فى النساء مدنية وهى رد عليهم لما سألوا النبى ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء . قال الله تعالى : ﴿ **فقد سألوا موسى أكبر من ذلك** ﴾ ثم ذكر فضائحهم ومعايبهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن

من الكذب والافتراء ، ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمدا ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده** ﴾ إلى قوله ﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾ والزبور : اسم الكتاب الذى أوحاه الله إلى داود عليه السلام وسنذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان .

وقوله : ﴿ **ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك** ﴾ أى من قبل هذه الآية يعنى فى السور المكية وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم فى القرآن وهم آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى . وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد ﷺ .

وقوله : ﴿ **ورسلاً لم نقصصهم عليك** ﴾ أى خلقاً آخرين لم يذكروا فى القرآن . وقد اختلف فى عدد الأنبياء والمرسلين . والمشهور فى ذلك : حديث أبى ذر الطويل وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله فى تفسيره حيث قال :

حدثنا إبراهيم بن محمد حدثنا جعفر بن محمد بن الحسن والحسين بن عبد الله بن يزيد قالا حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى حدثنى أبى عن جدّى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا** » قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : «ثلاثمائة وثلاثة عشر . جم غفير » قلت : يا رسول الله من كان أوّلهم ؟ قال «آدم» قلت : يا رسول الله نبى مرسل ؟ قال « نعم ، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سوّاه قبلا » ثم قال « يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث ونوح

وإخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم . وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر ، وأول نبى من بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى ، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك»

وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستى فى كتابه الأنواع والتقاسيم وقد وسمه بالصحة وخالفه أبو الفرج بن الجوزى فذكر هذا الحديث فى كتابه الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام هذا ، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث . والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث من وجه آخر عن صحابى آخر ، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف حدثنا أبو المغيرة حدثنا معان بن رفاعة عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة قال : قلت يا نبى الله كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر . جماً غفيراً » معان بن رفاعة السلامى ضعيف وعلى بن يزيد ضعيف والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضا ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أحمد بن إسحق أبو عبد الله الجوهرى البصرى حدثنا على بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة الزبدى عن يزيد الرقاشى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **بعث الله ثمانية آلاف نبى . أربعة آلاف إلى بنى إسرائيل وأربعة آلاف إلى سائر الناس** » وهذا أيضا إسناد ضعيف فيه الريذى ضعيف وشيخه الرقاشى أضعف منه . والله أعلم .

وقال أبو يعلى : حدثنا أبو الربيع حدثنا محمد بن ثابت العبدى حدثنا معبد بن خالد الأنصارى عن يزيد الرقاشى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «كان فيمن خلا من إخوانى من الأنبياء ثمانية آلاف نبى ، ثم كان عيسى ابن مريم ، ثم كنت أنا» وقد رويناه عن أنس من وجه أخر فأخبرنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى أخبرنا أبو الفضل بن عساكر أنبأنا الإمام أبو بكر بن القاسم بن أبى سعيد الصفار

أخبرتنا عمة أبى عائشة بنت أحمد بن منصور بن الصفار أخبرنا الشريف أبو السنابك هبة الله بن أبى الصهباء محمد بن حيدر القرشى حدثنا الإمام الأستاذ أبو إسحق الأسفراينى قال أخبرنا الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسلم بن خالد حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك قال :

قال رسول الله ﷺ : « **بعثت على إثر ثمانية آلاف نبى** . منهم أربعة آلاف نبى من بنى إسرائيل » وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده لا بأس به . رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق هذا فإنى لا أعرفه بعدالة ولا جرح . والله أعلم .

وحديث أبى ذر الغفارى الطويل فى عدد الأنبياء عليهم السلام : قال محمد بن الحسين الآجرى حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد بن الفريابى إملاء فى شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى حدثنا أبى عن جدّه عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر قال : دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده فجلست إليه فقلت : يا رسول الله إنك أمرتنى بالصلاة . قال: «الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل» قال : قلت : يا رسول الله فأى الأعمال أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » قلت : يا رسول الله فأى المؤمنين أفضل؟ قال « أحسنهم خلقاً » قلت : يا رسول الله فأى المسلمين أسلم؟ قال : «من سلم الناس من لسانه ويده » قلت : يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « من هجر السيئات » قلت : يا رسول الله أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » قلت : يا رسول الله فأى الرقاب أفضل ؟ قال :« أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » قلت : يا رسول الله فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد من مقل وسر إلى فقير » قلت : يا رسول الله فأى آية ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آية الكرسى » ثم قال : « يا أبا ذر وما السموات السبع مع الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة » قال : قلت : يا

رسول الله كم الأنبياء؟ قال : «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا**» قال : قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال : «ثلاثمائة وثلاثة عشر . جم غفير كثير طيب » قلت : فمن كان أولهم ؟ قال : « آدم » قلت : أنبى مرسل ؟ قال : « نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسوّاه قبيلا » ثم قال : «يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث وأخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم ونوح وأربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر ؛ وأوّل أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول الرسل آدم وآخرهم محمد » قال : قلت : يا رسول الله كم كتاب أنزل الله ؟ قال « **مائة كتاب وأربعة كتب** ، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » قال : قلت : يا رسول الله **ما كانت صحف إبراهيم** ؟ قال « كانت كلها : يا أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنى بعثتك لتردّ عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردّها ولو كانت من كافر وكان فيها متألّ . وعلى العاقل أن يكون له ساعات ، ساعة يناجى فيها ربه . وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فى صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزوّد لمعاد أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » قال : قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال « كانت عبراً كلها » عجبت لم أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل » قال : قلت : يا رسول الله فهل فى أيدينا شىء مما كان فى أيدى إبراهيم وموسى وما أنزل الله عليك؟ قال : « نعم ، اقرأ يا أبا ذر ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى

.بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى ﴾ قال: قلت : يا رسول الله فأوصنى قال : « بتقوى الله فإنه رأس أمرك » قال : قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : « عليك بتلاوة القرآن فإنه ذكر لك فى السماء ونور لك فى الأرض » قال : قلت : يا رسول الله زدنى قال : «إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه » قلت : يا رسول الله زدنى قال: « عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتى « قلت زدنى قال « عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك » قلت زدنى قال « انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك فإنه أجدر لك لأن لا تزدرى نعمة الله عليك » قلت : زدنى قال : «أحب المساكين وجالسهم فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عليك» قلت :زدنى قال « صل قرابتك وإن قطعوك » ، قلت: زدنى قال :« قل الحق وإن كان مراً » قلت : زدنى قال « لا تخف فى الله لومة لائم » قلت : زدنى قال: «يردّك عن الناس ما تعرف من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تحب ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك أو تجد عليهم فيما تحب . ثم ضرب بيده صدرى فقال :« يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق»

وروى الإمام أحمد عن أبى المغيرة عن معان بن رفاعة عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة أن أبا ذر سأل النبى ﷺ فذكر أمر الصلاة والصيام والصدقة وفضل آية الكرسى ولا حول ولا قوّة إلا بالله وأفضل الشهداء وأفضل الرقاب ونبوة آدم وأنه مكلّم وعدد الأنبياء المرسلين كنحو ما تقدم . وقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت فى كتاب أبى بخطه حدثنى عبد المتعال بن عبد الوهاب حدثنا يحيى بن سعيد الأموى حدثنا مجالد عن أبى الوداك قال : قال أبو سعيد هل تقول الخوارج بالدجال؟ قال : قلت : لا ، فقال : قال رسول الله ﷺ: « إنى خاتم ألف نبى أو أكثر وما بعث نبى يتبع إلا وقد حذر أمّته ، منه وإنى قد بين لى فيه ما

لم يبين ، وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة فى حائط مجصص،وعينه اليسرى كأنها كوكب درى ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن » وقد رويناه فى الجزء الذى فيه رواية أبى يعلى الموصلى عن يحيى بن معين : حدثنا مروان بن معاوية حدثنا مجالد عن أبى الوداك عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنى أختم ألف ألف نبى أو أكثر ما بعث الله من نبى إلى قومه إلا حذرهم الدجال** » وذكر تمام الحديث . هذا لفظه بزيادة ألف[1] وقد تكون مقحمة . والله أعلم .

وسياق رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة ورجال إسناد هذا الحديث لا بأس بهم وقد روى هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن على حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « **إنى لخاتم ألف نبى أو أكثر** وإنه ليس منهم نبى إلا وقد أنذر قومه الدجال وإنى قد بين لى ما لم يبين لأحد منهم وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور »

قوله : ﴿ **وكلم الله موسى تكليما** ﴾[2] وهذا تشريف لموسى عليه السلام

---

(١) يقصد الألف فى « أو »

(٢) قال القرطبى رحمه الله : قوله تعالى ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ يدل على بطلان من يقول : خلق لنفسه كلاما فى شجرة . فسمعه موسى ، بل هو الكلام الحقيقى الذى يكون به المتكلم متكلما . أ.هـ

أما رواية : « وكَلَمَ » بمعنى جرح وأسال الدم . تهربا من إثبات كلام لئلا يلزم منه الخلو من مكان . فإن الشيخ ابن كثير ضعفها ردها . ولنعم ما قال فى الرد . وفى التضعيف . وأما رواية التوراة فى هذا المعنى فإنها تثبت ملكا كبيراً كلم موسى نيابة عن الله . ولما كان الملك نائبا عن الله ؛ عبرت عنه بأنه الله فى موضع ، وبأنه ملك فى موضع آخر .

بهذه الصفة ، ولهذا يقال له الكليم ، وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكى حدثنا مسيح بن حاتم حدثنا عبد الجبار بن عبد

= ففى الأصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

« وأما موسى فصعد إلي الله . فناداه الرب من الجبل قائلا هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بنى إسرائيل . أنتم رأيم ما صنعت بالمصريين . وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلي . فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب . فإن لى كل الأرض . وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة . هذه هلى الكلمات التى تكلم بها بنى إسرائيل .

فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى أوصاه بها الرب ، فأجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل . فرد موسى كلام الشعب إلى الرب . فقال الرب لموسى ها أنا آت إليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا إلى الأبد . وآخبر موسى الرب بكلام الشعب . فقال الرب لموسى اذهب إلى الشعب وقدسهم اليوم وغداً . وليغسلوا ثيابهم. ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء . وتقيم للشعب حدوداً من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا . لا تمسه يد بل يرجم رجما أ ويرمى رميا . بهيمة كان أم إنسانا لا يعيش . أما عند صوت البوق فهم يصعدون إلى الجبل .

فانحدر موسى من الجبل إلى الشعب وقدس الشعب وغسلوا ثيابهم . وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث . لا تقوبوا امرأة . وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة . وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله . فوقفوا فى أسفل الجبل . وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً . فكان البوق يزداد اشتداداً جداً ، وموسى يتكلم . والله يجيبه بصوت . . . الخ » [خروج ١٩]

الله قال: جاء رجل إلى أبى بكر بن عياش فقال : سمعت رجلاً يقرأ « **وكلم الله موسى تكليما**» فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر . قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى بن وثاب على أبى عبد الرحمن السلمى ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى على على بن أبى طالب ، وقرأ على بن أبى طالب على رسول الله ﷺ ﴿ **وكلّم الله موسى تكليما** ﴾ وإنما اشتد غضب أبى بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك ؛ لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه . وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه . كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ : « **وكلم الله موسى تكليما**» فقال له : يا ابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه** ﴾؟ يعنى أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

وقال ابن مردويه : حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا أحمد بن الحسين بن بهرام حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا هانئ بن يحيى عن الحسين بن أبى جعفر عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « لما كلم الله موسى كان يبصر دبيب النمل على الصفا(١) فى الليلة الظلماء » وهذا حديث غريب وإسناده لا يصح . وإذا صح موقوفاً كان جيداً ، وقد روى الحاكم فى مستدركه وابن مردويه من حديث حميد بن قيس الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: « كان على موسى يوم كلمه ربه جبة صوف وكساء صوف وسراويل صوف ونعلان من جلد حمار غير مذكى » وقال ابن مردويه بإسناده عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : « إن الله ناجى موسى بمائة ألف كلمة وأربعين ألف كلمة فى ثلاثة أيام . وصايا كلها . فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم مما وقع فى مسامعه من كلام الرب عز وجل » وهذا أيضا إسناد ضعيف فإن جويبر أضعف ، والضحاك لم يدرك ابن عباس رضى الله عنهما .

(١) الصفا فى اللغة العبرانية هى الصخرة .

فأما الأثر الذى رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه وغيرهما من طريق الفضل بن عيسى الرقاشى عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنه قال :لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذى كلمه يوم ناداه ، فقال له موسى :يا رب هذا كلامك الذى كلمتنى به ؟ قال : « لا يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان: ولى قوة الألسنة كلها ، وأنا أقوى من ذلك : فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا : يا موسى صف لنا كلام الرحمن ، قال : لا أستطيع ، قالوا : فشبه لنا ، قال : ألم تسمعوا إلى صوت الصواعق فإنه قريب منه وليس به . وهذا إسناد ضعيف فإن الفضل الرقاشى هذا ضعيف بمرة .

قال عبد الرازق : أخبرنا معمر عن الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن جزء بن جابر الخيثمى عن كعب قال : إن الله لما كلم موسى كلمه بالألسنة كلها سوى كلامه ، فقال موسى : يا رب هذا كلامك ؟ قال : لا . ولو كلمتك بكلامى لم تستقم له ، قال : يا رب فهل من خلقك شيء يشبه كلامك ؟ قال : لا وأشدّ خلقى شبها بكلامى أشد ما تسمعون من الصواعق . فهذا موقوف على كعب الأحبار وهو يحكى عن الكتب المتقدمة المشتملة على أخبار بنى إسرائيل وفيها الغث والسمين .

وقوله ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين ﴾ أى يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب .

وقوله ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما**﴾ أى أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبين ما يحبه ويرضاه ، مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عذر(١) . كما قال تعالى: ﴿ ولو أنا

---

(١) هل يجب على الله إرسال الرسل ؟ وإذا وجب عليه إرسالهم لإزاحة العذر . فهل الوجوب من جهة السمع أم من جهة العقل ؟ يقول القرطبى : إن الوجوب من جهة السمع . أى من جهة أن الله فى القرآن نص على ذلك . وليس الوجوب من جهة

أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ وكذلك قوله: **﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾** الآية .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الوفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » وفى لفظ آخر: « من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه »

***

ثانيا : **﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ﴾**

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن فى السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحق فتعجبت المرأة من ذلك وقالت **﴿ يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا**

= العقل . ففى سورة النساء ١٦٥ يقول : « وفى هذا كله دليل واضح أنه لا يجب شىء العقل »

لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ فبشروهما مع وجوده ؛ بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً كما قال تعالى: **﴿وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾** وهذا أكمل فى البشارة وأعظم فى النعمة وقال **﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾** أى ويولد لهذا المولود ولد فى حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب . ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه ؛ وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذى فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله فى الأرض ؛ فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه كما قال تعالى **﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾**: وقال ههنا **﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا ﴾**

وقوله **﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾** أى من قبله هديناه كما هديناه ووهبنا له ذرية صالحة وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه فى السفينة جعل الله ذريته هم الباقين فالناس كلهم من ذريته . وأما الخليل إبراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته كما قال تعالى **﴿ وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾** الآية . وقال تعالى: **﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب﴾** وقال تعالى: **﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾** وقوله فى هذه الآية الكريمة **﴿ ومن ذريته ﴾** أى وهدينا من ذريته **﴿ داود وسليمان ﴾** الآية . وعود الضمير إلى نوح لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه وهو اختيار ابن جرير . وعوده إلى إبراهيم لأنه الذى سيق

الكلام من أجله حسن لكن يشكل عليه لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه هاران بن آزر(١). اللهم إلا أن يقال إنه دخل فى الذرية تغليباً كما فى قوله

(١) فى الأصحاح الحادى عشر وما بعده من سفر التكوين :

« هذه مواليد سام . لما كان سام ابن مئة سنة ولد أرفكشاد بعد الطوفان بسنتين . وعاش سام بعدما ولد أرفكشاد خمس مئة سنة وولد بنين وبنات . وعاش أرفكشاد خمسا وثلاثين سنة وولد شالح . وعاش أرفكشاد بعدما لد شالح أربع مئة وثلاث سنين وولد بنين وبنات . وعاش شالح ثلاثين سنة وولد عابر . وعاش شالح بعدما ولد عابر أربع مئة وثلاث سنين وولد بنين وبنات . وعاش عابر أربعا وثلاثين سنة وولد فالج . وعاش عابر بعدما ولد فالج أربع مئة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات. وعاش فالج ثلاثين سنة وولد رعو. وعاش فالج بعدما لد رعو مئتين وتسع سنين وولد بنين وبنات . وعاش رعو اثنتين وثلاثين سنة وولد سروج وعاش رعو بعدما ولد سروج مئتين وسبع سنين وولد بنين وبنات . وعاش سروج ثلاثين سنة وولد ناحور . وعاش سروج بعدما ولد ناحور مئتى سنة وولد بنين وبنات . وعاش ناحور تسعا وعشرين سنة وولد تارح . وعاش ناحور بعدما ولد تارح مئة وتسع عشرة سنة وولد بنين وبنات . وعاش تارح سبعين سنة وولد أبرام وناحور وهاران .

وهذه مواليد تارح . ولد تارح أبرام وناحور وهاران . وولد هاران لوطا . ومات هاران قبل تارح أبيه فى أرض ميلاده فى أور الكلدانيين . واتخذ أبرام وناحور لأنفسهما امرأتين . اسم امرأة أبرام ساراى واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبى ملكة وأبى يسكة . وكانت ساراى عاقرا ليس لها ولد . وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراى كنته امرأة أبرام ابنه . فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان . فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك . وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين . وماتا تارح فى حاران .

وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك من بيت أبيك إلى الأرض التى أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران » [تكوين ١١و١٢]

﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ فإسماعيل عمه دخل فى آبائه تغليباً ، وكما قال فى قوله ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ﴾ فدخل إبليس فى أمر الملائكة بالسجود وذمّ على المخالفة لأنه كان فى تشبه بهم ؛ فعومل معاملتهم ودخل معهم تغليباً وإلا فهو كان من الجن[1] وطبيعته من النار والملائكة من النور .

وفى ذكر عيسى عليه السلام فى ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام فإنه لا أب له[2] . قال ابن أبى حاتم حدثنا سهل بن يحيى العسكرى حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا على بن عابس عن عبد الله بن عطاء المكى عن أبى حرب بن أبى الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال : بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى ﷺ تجده فى كتاب الله ـ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده . قال : أليس تقرأ سورة الأنعام ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ حتى بلغ ﴿ ويحيى وعيسى ﴾؟ قال : بلى . قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال : صدقت . فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته أو أوقف على ذريته أو وهبهم ؛ دخل أولاد البنات فيهم ؛ فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو أوقف عليهم فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه . واحتجوا بقول الشاعر العربى :

بنونـا بنو أبنائنا وبناتنـا بنوهن أبناء الرجال الأجانب

(١) لفظ ﴿ الملائكة ﴾ يأتى على الحقيقة ، بمعنى الملائكة النورانيين . وعليه يكون الاستثناء منقطعا . ويأتى على المجاز ، بمعنى الأتباع والأنصار . وعليه يكون الاستثناء متصلا .

(٢) الأمر المعجزى له وضع خاص .

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيهم أيضاً لما ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن على: « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فسماه ابناً فدل على دخوله فى الأبناء . وقال آخرون: هذا تجوز(١).

وقوله ﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوى طبقتهم ، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم . ولهذا قال ﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ﴾ أى إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته كقوله تعالى: ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ الآية . وهذا شرط والشرط لا يقتضى جواز الوقوع كقوله: ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ وكقوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ :وكقوله ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾

وقوله تعالى: ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ﴾ أى أنعمنا

---

(١) قوله : « فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته . . . الخ » رتب عليه أمراًعقائديا . وهو أن يكون أمير المؤمنين من الشيعة من نسل فاطمة رضى الله عنها وكيف تترتب العقائد على الفروع ؟ وهذا الفرع حكم فقهى مختلف فيه ؛ فإن من الفقهاء من أجاز الوقف ومنهم من منعه اكتفاء بالوصية ، ولأنه حبس للمال عن التداول . وقد نهى النبى ﷺ عن الحبس ، ثم إن تفرقته بين الوقف وبين العطايا . وهى وصية منصوص عليها فى القرآن ؛ فيه مساواة بين الظنى والقطعى . وليس من تفرقة فى العطايا التى هى ﴿الوصية ﴾ بين الذكر والأنثى لأنها ﴿ بالمعروف ﴾ أى بالعدل ﴿ للوالدين والأقربين ﴾ ولم يفرق بين ذكر أنثى .

عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخليقة ﴿ فإن يكفر بها ﴾ أى بالنبوة ، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة . وقوله ﴿هؤلاء﴾ يعنى أهل مكة[1]. قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ أى إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم وملّيين وكتابيين فقد وكلنا بها قوماً آخرين ، أى المهاجرن والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿ ليسوا بها بكافرن ﴾ أى لا يجحدون منها شيئا ولا يردون منها حرفا واحداً بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها . جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه .

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ أولئك﴾ يعنى الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿الذين هدى الله﴾ أى هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ أى اقتد واتبع.

وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به ، قال البخارى عند هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرنى سليمان الأحول أن مجاهداً أخبره أنه سأل ابن عباس أفى ﴿ص﴾ سجدة؟ فقال: نعم ثم تلا:﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ إلى قوله ﴿ فبهداهم اقتده﴾ ثم قال: هو منهم ، زاد يزيد بن هارون ومحمد بن عبيد وسهل بن يوسف عن العوام عن مجاهد: قلت لابن عباس. فقال : نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدى بهم وقوله تعالى: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ أى لا أطلب منكم على إبلاغى إياكم هذا القرآن أجراً ، أى أجرة ولا أريد منكم شيئاً ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ أى يتذكرون به . فرشدوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغى إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان .

---

(١) الصحيح : اليهود المعاصرون للنبى ﷺ والمراد بالقوم الآخرين : العرب بنو إسماعيل عليه السلام

ثالثا : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾.

يذكر الله تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كُثُر ومنازل مرضية ، فابتلى فى ذلك كله وذهب عن آخره ثم ابتلى فى جسده. يقال بالجذام فى سائر بدنه ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل حت عافه الجليس وأفرد فى ناحية من البلد ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله . وقد قال النبىﷺ «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل» وفى الحديث الآخر: «يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه» وقد كان نبى الله أيوب عليه السلام غاية فى الصبر ، وبه ضرب المثل فى ذلك.

وقال يزد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ولم يبق شيء له ؛ أحسن الذكر ثم قال : أحمدك رب الأرباب الذى أحسنت إلىّ . أعطيتنى المال والولد . ولم يبق من قلبى شعبة إلا قد دخله ذلك. فأخذت ذلك منى كله من وفرغت قلبى فليس يحول بينى وبينك شيء. لو يعلم عدوى إبليس بالذى صنعت ؛ حسدنى . قال : فلقى إبليس من ذلك منكرا .ً قال: وقال أيوب عليه السلام : يا رب إنك أعطيتنى المال والولد فلم يقم على بابى أحد يشكونى لظلم ظلمته وأنت تعلم ذلك وأنه كان يوطأ لى الفراش فأتركها وأقول لنفسى: يا نفس إنك لم تخلقى لوطيىء الفراش ما تركت ذلك إلا إبتغاء وجهك. رواه ابن أبى حاتم .

وقد روى عن وهب بن منبه فى خبره قصة طويلة ساقها ابن جرير وابن أبى

حاتم بالسند عنه ، وذكرها غير واحد من متأخرى المفسرين ، وفيها غرابة تركناها لحال الطول ، وقد روى : أنه مكث في البلاء مدة طويلة . ثم اختلفوا فى السبب المهيج له على هذا الدعاء . فقال الحسن وقتادة : ابتلى أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهرا ملقى على كناسة بنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده ، ففرج الله عنه وأعظم له الأجر ، وأحسن عليه الثناء . وقال وهب بن منبه : مكث فى البلاء ثلاث سنين لا يزيد ولا ينقص .

وقال السدى : تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام ؛ فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه . فقالت له امرأته لما طال وجعه : يا أيوب لو دعوت ربك يفرج عنك . فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً ؛ فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من ذلك . فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه .

وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين كانا صديقين له وأخوين. فأتاهما فقال : أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أرضكما ؛ فإنه إن شرب منه برئ . فأتياه فلما نظرا إليه بكيا . فقال : من أنتما ؟ فقالا : نحن فلان وفلان ؛ فرحب بهما وقال : مرحباً بمن لا يجفوننى عند البلاء . فقالا : يا أيوب لعلك كنت تسرّ شيئا وتظهر غيره ؛ فلذلك ابتلاك الله. فرفع رأسه إلى السماء فقال : هو يعلم ما أسررت شيئاً أظهرت غيره ، ولكن ربى ابتلانى لينيظر أأصبر أم أجزع . فقالا له : يا أيوب اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه برأت . قال : فغضب وقال : جاءكما الخبيث فأمركما بهذا ؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما علىّ حرام . فقاما من عنده .

وخرجت امرأته تعمل للناس . فخبزت لأهل بيت . لهم صبى . فجعلت لهم قُرصاً وكان ابنهم نائماً فكرهوا أن يوقظوه فوهبوه لها ، فأتت به إلى أيوب فأنكره وقال : ما كنت تأتينى بهذا فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر ، قال : فلعل

الصبى قد استيقظ ، فطلب القرص فلم يجده ، فهو يبكى على أهله ، فانطلقى به إليه . فأقبلت حتى بلغت درجة القوم ؛ فنطحتها شاة لهم . فقالت : تعس أيوب الخطّاء . فلما صعدت وجدت الصبى قد استيقظ وهو يطلب القُرص ويبكى على أهله لا يقبل منهم شيئاً غيره . فقالت : رحمه الله ـ يعنى أيوب ـ فدفعت إليه القرص ورجعت . ثم إن إبليس أتاها فى صورة طبيب فقال لها : إن زوجك قد طال سقمه ، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بنى فلان ؛ فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك . فقالت ذلك لأيوب . فقال : قد أتاك الخبيث . لله علىّ إن برأت أن أجلدك مائة جلدة . فخرجت تسعى عليه . فحظر عنها الرزق . فجعلت لا تأتى أهل بيت فيريدونها . فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع حلقت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف فأعطوها طعاماً كثيراً. فأتت به أيوب . فلما رآه أنكره . وقال : من أين لك هذا؟ قالت : عملت لأناس فأطعمونى . فأكل منه . فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل ؛ فلم تجد . فحلقت أيضا قرناً فباعته من تلك الجارية فأعطوها أيضا من ذلك الطعام فأتت به أيوب . فقال : والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو . فرفعت خمارها فلما رأى رأسها محلوقاً جزع جزعاً شديداً . فعند ذلك دعا الله عز وجل فقال ﴿ رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا أبو عمران الجونى عن نوف البكالى : أن الشيطان الذى عرج فى أيوب . كان يقال له « مبسوط » قال : وكانت امرأة أيوب تقول ادع الله فيشفيك . فجعل لا يدعو حتى مرّ به نفر من بنى إسرائيل . قال بعضهم لبعض : ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه . فعند ذلك قال ﴿ رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ وحدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال كان لأيوب عليه السلام أخوان فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه . فقاما من بعيد . فقال أحدهما للآخر : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا . فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع

منه من شىء قط فقال :

اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع؛ فصدقنى . فصُدّق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط وأنا أعلم مكان عار ؛ فصدقنى . فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم خر ساجداً فقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبداً حتى تكشف عنى. فما رفع رأسه حتى كشف عنه . وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال : أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهرى عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال : «إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ويروحان . فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين؟ فقال له صاحبه : وما ذاك؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر حتى ذكر له. فقال أيوب عليه السلام :ما أدرى ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق . وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ . فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ رفع هذا الحديث غريب جداً.

وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعل حدثنا حماد أخبرنا على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلّة من الجنة. فتنحى أيوب فجلس فى ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه . فقالت : يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذى كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب؟ فجعلت تكلمه ساعة . فقال : ويحك أنا أيوب . قالت : أتسخر منى يا عبد الله ؟ فقال : ويحك أنا أيوب قد ردّ الله علىّ جسدى . وبه قال ابن عباس وَرُدَّ عليه ماله وولده

عياناً ﴿ ومثلهم معهم ﴾ وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب قد وددتُ عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ؛ فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك . رواه ابن أبى حاتم .

وقال أيضا أبو زرعة : حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعله فى ثوبه . قال فقيل له : يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يا رب ومن يشبع من رحمتك ؟ » أصله فى الصحيحين وسيأتى فى موضع آخر .

وقوله ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال : ردوا عليه بأعيانهم . وكذا رواه العوفى عن ابن عباس أيضا .

وروى عن ابن مسعود ومجاهد وبه قال الحسن وقتادة ، وقد زعم بعضهم : أن اسم زوجته رحمة . فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة ، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب وصح ذلك عنهم ؛ فهو مما لا يصدق ولا يكذب .

وقد سماها ابن عساكر(١) ـ رحمه الله تعالى ـ فى تاريخه قال : ويقال اسمها ليا بنت منشّا بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، قال ويقال : ليا

(١) يوسف عليه السلام أنجب ولدين هما : ١ ـ أفرايم . ٢ ـ ومنسًى .
وقال الثعلبى إن رحمة من نسل أفرايم . وقال ابن عساكر : إنها نسل مَنَسّى . أما اسم « ليا » الذى هو « ليئة » فإنها امرأة يعقوب عليه السلام الأولى . والأخرى «راحيل » وبنت يعقوب ليس اسمها « ليا » وإنما اسمها « دينة » وهى التى اغتصبها «شكيم » . وفى القرآن الكريم نهى عن ذكر الشرفاء والشريفات بالفاحشة فى قوله :
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾
وهو يعنى ما كتبه اليهود فى التوراة عن الشرفاء والشريفات . ويدخل من يقول الكذب من المسلمين فى النهى ؛ تبعا لهم .

بنت يعقوب عليه السلام زوجة أيوب كانت معه بأرض الثنية .

وقال مجاهد : قيل له : يا أيوب إن أهلك لك فى الجنة فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك فى الجنة ، وعوضناك مثلهم . قال : لا بل أتركهم فى الجنة فتركوا له فى الجنة . وعوض مثلهم فى الدنيا . وقال حماد بن زيد عن أبى عمران الجونى عن نوف البكالى قال : أوتى أجرهم فى الآخرة ، وأعطى مثلهم فى الدنيا . قال : فحدثت به مطرفا فقال : ما عرفت وجهها قبل اليوم . وكذا روى عن قتادة والسدى وغير واحد من السلف . والله أعلم .

وقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أى : فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أى : وجعلناه فى ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به فى الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء . وله الحكمة البالغة فى ذلك .

***

رابعا : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلا تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شىء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت ودّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثمانى عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة

من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضى الله عنها فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساء إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريباً ، فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر ، وتم الأجل المقدر ؛ تضرع لرب العالمين وإله المرسلين فقال ﴿ **إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾. وفى هذه الآية الكريمة قال : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ قيل : بنصب فى بدنى وعذاب فى مالى وولدى . فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله . ففعل . فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها ؛ فأذهبت جميع ما كان فيه بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى ، وأمره أن يشرب منها؛ فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً ، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿**اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب**﴾

قال ابن جرير وابن أبى حاتم جميعاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال: « إن نبىّ الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ؛ فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام : لا أدرى ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا فى حق . قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿ **اركض برجلك هذا**

مغتسل بارد وشراب ﴾ فاستبطأته فالتفتت فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أى بارك الله فيك هل رأيت نبىّ الله هذا المبتلَى ؟ فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال: فإنى أنا هو . قال : وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فلما كان إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض » هذا لفظ ابن جرير رحمه الله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرازق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو فى ثوبه فناداه ربه عز وجل : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال عليه الصلاة والسلام : بلى يا رب ولكن لا غنى بى عن بركتك » انفرد بإخراجه البخارى من حديث عبد الرزاق به ، ولهذا قال تبارك وتعالى: **﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾** . قال الحسن وقتادة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم**﴿ مثلهم معهم ﴾** وقوله عز وجل **﴿ رحمة منا ﴾** أى : به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته **﴿وذكرى لأولى الألباب﴾** أى : لذوى العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله جلت عظمته **﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾**

وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها فى أمر فعلته ، قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها ؛ على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، وقيل : لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان ؛ أن تقابل بالضرب . فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة . وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى

بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه . ولهذا قال جل وعلا: ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ أثنى الله تعالى عليه ، ومدحه بأنه ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ أى رجاع منيب ، ولهذا قال جل جلال:ه ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً** ﴾.

واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل فى الإيمان وغيرها ، وقد أخذوا بمقتضاها(١) . والله أعلم بالصواب .

---

(١) يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ② ﴾

قصة أيوب عليه السلام
فى
قصص الأنبياء للثعلبى

نص الكلام :

قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ قال وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتب : كان أيوب رجلا من أدوم(١) ، وكان رجلا طويلا عظيم الرأس جعد الشعر حسن العينين والخلق قصير العنق غليظ الساقين والساعدين وكان مكتوباً بأعلى جبهته : المبتلَى الصابر ، وهو أيوب بن أموص بن تارح ، بن أدوم(٢) بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكان له الثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان فيها . وكان له من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدة والكثرة ، وكان له بها خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان ، ولكل أتان ولد من الاثنين إلى فوق الخمسة . وكان الله أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء ، وكان أمره تقيا رحيما بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلّغ ابن السبيل ، وكان شاكراً لأنعم الله تعالى ، مؤديا لحقه ، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما أصاب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن أمر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا ، وكان معه ثلاثه قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله . رجل من أهل اليمن يقال له أليفن ، ورجلان من أهل

(١) فى الأصل : الروم

(٢) فى الأص : ابن روم .

بلاده يقال لأحدهما(١) : بلدد وللآخر : صوفر . وكانوا كهولا .

قال وهب : إن لجبريل عليه السلام بين يدى الله مقاماً ليس لأحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة ، وإن جبريل هو الذى يتلقى الكلام ، فإذا ذكر الله تعالى عبداً بخير تلقاه جبريل ثم ميكائيل ثم من حوله من الملائكة المقربين والحافين من حول العرش ، فإذا شاع ذلك فى الملائكة المقربين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات ، فإذا صلّت عليه أهل السموات ، هبط عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض . وكان إبليس لا يحجب عن شىء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد ، ومن هناك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة . فلم يزل على ذلك يصعد إلى السماء حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب عن أربع ، وكان يقعد فى ثلاث . فلما بعث الله محمداً ﷺ حجب عن الثلاثة الباقية ، فهو وجنوده محجوبون عن جميع السموات إلى يوم القيامة ﴿ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ قال : فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب ، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ؛ فأدركه البغض والحسد ، وصعد سريعاً حتى صعد فى السماء موقفا كان يقفه . فقال : يا إلهى نظرتُ فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ثم لم تختبره . لا بشدة ولا ببلاء . وأنا لك زعيم ، لئن ضربته ببلاء ليكفرُن بك ولينسينك . فقال الله تعالى انطلق إليه فقد سلطتك على ماله . فانقض عدو الله حتى بلغ الأرض ، ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم . فقال لهم : ماذا عندكم من القوة والمعرفة فإنى قد سُلطت على مال أيوب ، وزوال المال هى المصيبة الفادحة والفتنة التى لا تصبر عليها الرجال؟ فقال عفريت من الشياطين : أُعطيت من القوة ما لو شئت تحولت اعصاراً من نار فأحرقتُ كل شىء آتى عليه . فقال له إبليس : فأت الإبل فاحرقها ورعاتها. فانطلق يؤم الإبل ، وذلك حين وضعت رءوسها وثبتت فى مراعيها . فما

---

(١) فى الأصل : مالك وظافر .

تشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ فيه رياح السموم ، لا يدنو منها أحد إلا احترقت . فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها . فلما فرغ منها تمثّل إبليس على قعود منها فى صفة راعيها ثم انطلق يؤم أيوب ، حتى وجده قائما يصلى . فقال له : يا أيوب . فقال : لبيك . فقال : هل تدرى ما الذى صنع ربك الذى اخترته وعبده بإبلك ورعاتها ؟ فقال أيوب: إنها مال أعارنيها وهو أوْلى :بها إن شاء تركها وإن شاء أخذها ، وقد تحققت وطبت النفس أنى ومالى للفناء والزوال . فقال له إبليس : فإن ربك أرسل إليها ناراً من السماء فاحترقت كلها وبقى الناس مبهوتين وقوفا عليها يتعجبون منها . منهم من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا فى غرور . ومنهم من يقول : لو كان إله أيوب يقدر أن يصنع شيئا لمنع وليه من حريق مواشيه . ومنهم من يقول : هو الذى فعل ما فعل. فشمت به عدوه وفجع به صديقه . فقال أيوب : الحمد لله الذى أعطانى وحيث شاء نزع منى ، عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود إلى القبر وعريانا أحشر إلى ربى ، ليس ينبغى لك أن تفرح حين أعارك الله وتجزع حين قبض عاريته فهو أوْلى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصيرك شهيدا مع الشهداء ، ولكنه علم فيك شر فأخّرك وخلصك من البلاء كما يخلص الزؤان(١) من القمح الخالص .

فرجع إبليس إلى أصحابه خائبا ذليلا وقال لهم : ماذا عندكم من القوة أنى لم أكْلم قلبه. فقال عفريت من عظمائهم:عندى من القوة ما لو شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه . فقال له إبليس :فأت الغنم ورعاتها . فانطلق يؤم الغنم ورعاتها حتى إذا توسطها صاح صوتا ماتت منه الغنم جميعا وماتت رعاتها . ثم إن إبليس خرج متمثلا بقهرمان الرعاة حتى جاء إلى أيوب وهو قائم يصلى فقال له مثل قوله أوّلاً ورد عليه أيوب مثل ما قال فى النّوبة الأولى .

---

(١) الزّؤان : نبات شيطانى يخرج من الأرض مع أعواد القمح .

ثم إن إبليس رجع إلى أصحابه فقال : ما عندكم من القوة فإنى لم أكلم قلب أيوب ؟ فقال عفريت من عظمائهم : عندى من القوة ما إذا شئت تحولت ريحا عاصفاً تنشف كل شيء تأتى عليه حتى لا يبقى منه شيء . فقال له إبليس : فأت الفدادين والحرث . فانطلق يؤمهم حتى قرب من الفدادين فما استوى فى الحرث وأولادهم رتوع ، فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف ، فنشفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن . ثم إن إبليس خرج متمثلا بقهرمان الحرث حتى جاء إلى أيوب وهو قائم يصلى ، فقال له مثل قوله الأول فأجابه أيوب بمثل جوابه الأول .

فجعل إبليس يصيب ماله الأول فالأول حتى أتى على آخره ، قال : وأيوب كلما انتهى إليه بهلاك مال من ماله ، حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضى بالقضاء، ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى ما بقى له مال فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينل منه شيئا ولا نجح فى شيء من أفعاله ، شق عليه ذلك ، وصعد سريعا ووقف الموقف الذى كان يقفه . وقال : إلهى إن أيوب يرى أنك مهما متعته من نفسه وولده فأنت معطيه المال، فهل أنت مسلطى على ولده فإنها الفتنة المضلة والمصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم؟ فقال الله تعالى له: انطلق فقد سلطتك على ولده . فانقض عدو الله حتى جاء بنى نبى الله أيوب وهم فى قصرهم . فلم يزل يزلزله حتى تداعى القصر من قواعده ، ثم جعل يناطح بجدره بعضها بعضا . فرماهم بالخشب والجندل حتى مثل بهم كل مثلة ثم رفع بهم القصر وقلبه ؛ فصاروا منكسين .

ثم إن إبليس انطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الرأس والوجه يسيل دمه من دماغه . فأخبره بذلك وقال له : يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عُذّبوا ، وكيف قُلب بهم القصر ، وكيف نكسوا على رءوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وشفاههم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم ، لتقطع قلبك . فلم يزل يقول هذا ويردد . حتى رق أيوب عليه

وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه . فاغتنم إبليس الفرصة منه لذلك، فصعد سريعاً بالذى كان من جذع أيوب ؛ مسروراً . ثم لم يلبث أيوب أن أبصر فاستغفر وشكر ، فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته فبادروا إبليس وسبقوه إلى الله . والله أعلم بما كان .

فوقف إبليس خاسئاً ذليلا فقال : يا إلهى إنما هَوّن على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك مهما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد ،فهل أنت مسلطى على نفسه وبدنه ، فإنى لك زعيم لئن ابتليته فى جسده لينسينك وليكفرن بك وليجحدن نعمتك ؟ فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على جميع جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله . وكان والله أعلم به لم يسلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب .

فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب ساجداً ، فقبل أن يرفع رأسه أتاه من قبل الأرض فى موضع وجهه ونفخ فى منخريه نفخة اشتعل منها جسده . فذهل وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل مثل إليات الغنم ، ووقعت فيه حكّة لا يملكها ولا يتماسك عن حكها ، فحك بأظافره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ، ثم بالفخار والحجارة الخشنة ، فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه وتقطع وتغير وأنتن . فأخرجه أهل القرية فجعلوه فى كناسة وجعلوا له عريشا . فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت أفرائيم[١] بن يوسف بن يعقوب عليهم

(١) هذا تناقض من المؤلف . لأنه قال : إن أيوب من نسل عيسو . فإذا قال : إن امرأته من بنات يعقوب من نسل أفرايم بن يوسف عليه السلام . فإنه يكون متزوجا من بنت من غير نسله . وتكون هى قد أخذت رجلا من غير سبطها . وفى شريعة التوراة أن التى تريد الإرث فى أرض إسرائيل لابد أن تتزوج فى سبطها . وإذ هى من سبط يوسف يكون أيوب من سبط يوسف . وهذا هو التناقض . ولو كان أيوب =

السلام، وكانت تختلف إليه بما يصلحه وتكرمه .

فلما رأى أصحابه الثلاثة ما ابتلاه الله به ، اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه ، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه وهو فى بلائه فبكّتوه ولاموه وقالوا له : تب إلى الله من الذنب الذى عُوقبت به .

قال : وكان(١) حضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدّقه . فقال: إنكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم ولكنكم قد تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ، ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ، ومن الأمر أجمل من الذى أوتيتم ، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم ، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم ، وحرمة من انتهكتم ، ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ؟ ألم تعلموا أن أيوب نبى الله وحبيبه وخيرته وصفوته من أهل الأرض فى يومكم هذا ، ثم إنكم لم تعلموا ولا أطلعكم الله تعالى على أنه سخط شيئا من أمره منذ أتاه ما أتاه إلى يومكم هذا ، ولا علمتم أنه نزع منه شيئا من الكرامة التى أكرمه الله بها ، ولا أن أيوب غيّر الحق فى طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا . فإن كان البلاء هو الذى أزرى به عندكم ووضعه فى أنفسكم ؛ فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ثم إن بلاءهم ليس دليلا على سخطه عليهم ، ولا هوانهم عليه ، ولكنه كرامة وخيرة لهم. ولو كان أيوب ليس هو من الله بهذه المنزلة إلا أنكم آخيتموه على وجه الصحبة ، لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا

= من سبط أفرايم بن يوسف ؛ لما وضع اليهود العبرانيون سفره ضمن أسفار التوراة ؛ لأن سبط أفرايم من اليهود السامريين وهم أعداء للعبرانيين . والحق : أن أيوب من اليهود العبرانيين . بدليل : أنهم وضعوا سفره ضمن أسفار التوراة ، وأن العين التى اغتسل فيها وشرب منها موجودة فى أورشليم (القدس) .

(١) الأصحاح الثانى والثلاثون .

يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ، ولكنه يرحمه ويبكى معه ويستغفر الله له ويحزن لحزنه ويدله على رشد أمره ، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا .

فالله الله أيها الكهول فقد كان لكم من عظم الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم . ألم تعلموا أن لله عباداً أسكتتهم خشيته من غير عى ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء النبلاء البلغاء الألباء العالمون بالله وآياته ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاما وإعزازاً وإجلالا ، فإذا استفاقوا استبقوا إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية الصالحة ، يعدّون أنفسهم مع الخاطئين الظالمين وإنهم براء ، ويعدون أنفسهم مع المفرطين المقصرين وإنهم لأكياس أقوياء ولكنهم لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال ، فهم مرعون خاشعون مستكينون .

فقال أيوب إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب المؤمن الكبير والصغير. فمتى نبتت فى القلب أظهرها الله تعالى على اللسان وليس تكون الحكمة من قبل السن والشيب ولا طول التجربة ، فإذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة .

ثم إن أيوب أقبل على الثلاثة وقال أتيتمونى غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا أو بكيتم قبل أن تضربوا . كيف بكم لو قلت لكم تصدقوا عنى بأموالكم لعل الله يخلّصنى ، وقربوا عنى قرابين لعل الله يتقبلها ويرضى عنه وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم : فهنيئا لكم بغيتم وتعززتم . ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا ، سترها الله عليكم بالعافية التى ألبسكم إياها وقد كنتم فيما خلا لى الرجال . توقرونى وأنا مسموع كلامى معروف حتى منتصف من خصمى ، فأصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام معكم فأنتم اليوم أشد علىّ من مصيبتى .

ثم إنه عرض عنهم . وأقبل على ربه مستغيثا متضرعا إليه فقال : رب لأى شىء خلقتنى ؟ ليتنى إذ كرهتنى ما خلقتنى يا ليتنى كنت حيضة ألقتنى أمى ، أو ليتنى قد عرفت الذنب الذى أذنبت ، والعمل الذى عملت . فصرفت وجهه الكريم عنى . لو كنت أمتّنى وألحقتنى بآبائى فالموت كان أجمل لى يا إلهى . ألم أكن للغريب داراً ، وللمسكين قراراً ، ولليتيم وليا ، وللأرملة قيما ؟ إلهى أنا عبد ذليل. إن أحسنتَ فالمنة لك ، وإن أساتُ فبيدك عقوبتى . جعلتنى للبلاء غرضاً ، وللفتنة نصباً . لقد وقع علىّ بلاء لو سلطته على جَمَل لضعف عن حمله ، فكيف يحمله ضعفى ، إلهى تقطعت أصابعى فإنى لا أرفع الأكلة من الطعام إلا بيدى جميعا . فما يبلغان فمى إلاّ على الجهد منى . إلهى تساقطت لهواتى ولحم رأسى ، فما بين أذنى من سداد ، بل أحدهما ترى من الآخر ، وإن دماغى ليسيل من فمى. إلهى تساقط شعر عينىّ كأنما أحرق بالنار وجهى ، وحدقتاى متدليتان على خدى ، وورم لسانى حتى ملأ فمى ، فما أُدخل فيه طعاما إلاّ غصّنى ، وورمت شفتاى حتى غطت العليا أنفى والسفلى ذقنى ، وتقطعت أمعائى فى بطنى ، وإنى لأدخل الطعام فيخرج كما دخل . ما أُحسّه ولا ينفعنى ، وذهبت قوة رجلىّ فكأنهما قد يبستا، ولا أطيق حملهما . وذهب المال فصرت أسأل بكفى ، ويطعمنى ـ من كنت أطعمه ـ اللقمة الواحدة فيمنّ بها علىّ ويُعيّرنى .

إلهى هلك أولادى ولو بقى واحد منهم أعاننى على بلائى ونفعنى، قد ملّنى أهلى ، وعقنى أرحامى ، وتنكرت لى معارفى ، ورغب عنى صديقى ، وقطعنى أصحابى ، وجُحدت حقوقى ، ونُسيت صنائعى . أصرخُ فلا يصرخوننى ، وأعتذر فلا يعذروننى . دعوت غلامى فلم يجبنى ، وتضرعت لأمتى فلم ترحمنى ، وإن قضاءك هو الذى أذلنى وأدنانى وأهاننى وأقامنى ، وإن سلطانك هو الذى أسقمنى، وأنحَل جسمى ولو أن ربى نزع الهيبة التى فى صدرى فأطلق لسانى ؛ لأتكلم بملء فمى ، ولو كان ينبغى للعبد أن يحاجّ عن نفسه لرجوت أن يعافينى عند ذلك مما بى

ولكنه ألقانى وتخلّى عنى ، فهو يرانى ولا أراه ويسمعنى ولا أسمعه. ولا نَظَرَ إلىّ فرحمنى ، ولا دنا منى ولا أدنانى فأتكلم ببراءتى ، وأخاصم عن نفسى .

فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده ، أظلته غمامة حتى ظن أصحابه أنه. عذاب . ثم نُودى : يا أيوب إن الله تعالى يقول لك : ها أنا قد دنوت منك فلم أزل منك قريبا فقم فادلُ بعذرك ، وتكلم ببراءتك ، وخاصم عن نفسك ، واشدد عليك إزارك ، وقم مقام جبار فإنه لا ينبغى أن يخاصمنى إلاّ جبار مثلى ، ولا ينبغى أن يخاصمنى إلا من يجعل الزمام فى فم الأسد والسخال فى فم العنقاء ، واللحم فى فم التنين ، ويكيل مكيالا من النور ، ويزن مثقالا من الريح ، ويصرّ صرة من الشمس ، ويرد أمس ، لقد منّتك نفسك أمرا ما يبلغ بمثل قوتك ولو كنتَ إذ منّتك ذلك ودعتك إليه . تذكرت أى مرام رامت بك ؟ أردت أن تكاثرنى بضعفك أم أردت أن تخاصمنى بغيك ، أم أردت أن تحاجينى بخطئك ؟ أين كنت منى يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها ؟ هل علمت بأى مقدار قدرتها ؟ أم كنت معى تمر بأطرافها أم تعلم ما بعدُ زوايا أم على أى شىء وضعت أكافها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ، أم بحكمتك كانت الأرض على الماء غطاء ؟ آين كنتَ منى يوم رفعتُ السماء سقفا فى الهواء لا معاليق تمسكها ، ولا تحملها دعائيم من تحتها ؟ هل يبلغ من حكمتك أن تُجرى وتسير نجومها أم هل بأمرك يختلف ليلها ونهارها ؟ أين كنت منى يوم سجرت البحار ، واينعت الأنهار ؟ أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدنها ؟ أين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال ؟ هل لك أن تطيق حملها أم كنت تدرى كم مثقال ما فيها ؟ أين الماء الذى أنزلته من السماء ؟ هل تدرى كم بلدة أهلكتها ، وكم من قطرة أحصيتها ، وقسمت الأرزاق أم قدرتك تسير السحاب وتنثر الماء ؟ هل تدرى ما أصوات الرعد أم من شىء لهب البرق ؟ وهل رأيت عمق البحر أم هل تدرى ما بعد الهواء ، أم هل تدرى أين خزانة النهار بالليل ، وأين

طريق النور وبأى لغة تتكلم الأشجار وأين خزانة الريح ، وأين جبال البرد؟ أم هل تدرى من جعل العقول فى أجواف الرجال ، ومن شق الأسماع والأبصار ، ومن ذلت الملائكة لملكه، ومن قهر الجبار بجبروته ، وقسم أرزاق الدواب والعباد بحكمته . ومن قسم للأُسد أرزاقها ، وعرّف الطير معاشها ، وعطفها على أفراخها ، ومن أعتق الوحوش من الخدمة وجعل مساكنها البرية ، لا تأنس بالأصوات ، ولا تهاب السلاطين ؟ أبحكمتك عطفت عليها أمهاتها حتى أخرجت لها طعاما من أفواهها ، وآثرتها بالعيش على نفوسها ، أم بحكمتك يبصر العقاب الصيد البَعيد واضحا فى أماكن الفلا ؟ أين أنت يوم خلقتُ البهموت مكانه فى منقطع التراب ، واللوتيا يحملان الجبال والقرى وللعمران أنيابهما ، كأنها شجر الصنوبر الطوال ، ورءوسهما كأنها الجبال ، وعروق أفخاذهما كأنهما عمد النحاس؟ أنت ملأت جلودهما لحما ، أم أنت ملأت رءوسهما دما ؟ هل لك فى خلقهما من شِرّك ، أم لك بالقوة التى غلبتهما يدان ، أم هل يبلغ من قوتك أن تضع يديك على رءوسهما أم تقعد على طريق فتحبسهما أو تصدهما عن قوتهما ؟ أين أنت يوم خلقت التنين ورزقته فى البحر ومسكنه فى السماء وعيناه توقدان نارا ومنخراه يثوران وأذناه مثل قوس السحاب ، يثور منهما لهب كأنه إعصار العجاج ، جوفه يحرق ونفسه يلتهب وزيداه جمر كأمثال الصخور ، وكأن ضرب أسنانه لصوت الصواعق وكأن نظر عينيه لمع البرق ، تمر به الجيوش وهو متكئ لا يفزعه شىء . ليس فيه مفصل، زبر الحديد عنده مثل التبر ، والنحاس عنده مثل الخيوط . لا يفزع من النشاب ، ولا يخشى وقع الصخورعلى جسده ، ويطير فى الهواء كأنه عصفور فيهلك كل شىء يمر به ؟ هل أنت آخذه بأحبولته وواضع اللجام فى شدقه ؟ هل تحصى عمره أم هل تعرف أجله ، أم تعرف رزقه ، أم هل تدرى ماذا خرب من الأرض ، وماذا يخرب فيما بقى من عمره ، أم هل تطيق غضبه حين يغضب ، أم تأمره فيطيعك . تبارك الله أحسن الخالقين .

فقال أيوب عليه السلام : قصرت عن هذا الأمر الذى ورد علىّ ليت الأرض انشقت لى فذهبتُ ولم أتكلم بشئ يسخط ربى حين اجتمع على البلاء .

إلهى قد جعلتنى لك مثل العدو ، وقد كنت تعرفنى وتعرف نصحى ، وقد علمتُ أن كل الذى ذكرتَ صنع يديك وتدبير حكمتك . وأعظم من هذا ولو شئت علمت أن لا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية ، ولا تغيب عنك غائبة . من هذا الذى يظن أن يُسر عنك سراً ، وأنت تعلم ما يخطر على القلوب ، وقد علمتُ منك فى بلائى هذا ما لم أكن أعلم وخفت أن يكون أمر أكثر مما كنت أخاف . إنما كنت أسمع بصوتك ، فأما الآن فهو نظر العين . إنما تكلمت لتعذرنى ، وسكتُّ حين سكت لترحمنى . كلمة نزلت على لسانى فلن أعود ، وقد وضعتُ يدى على فمى وعضضت على لسانى وألصقت بالتراب خدى ، ودست فيه وجهى لصغارى ، وسكتّ حين أسكتتنى خطيئتى ؛ فاغفر لى ما قلت. فلن أعود لشيء تكرهه عنى .

فقال الله تعالى : يا أيوب نفد فيك حكمى ، وسبقت رحمتى غضبى . إذ خطأت فقد غفرت لك ما قلت ، ورحمتك ورددت عليك أهلك ومالك ، ومثلهم معهم ، لتكون لمن خلفك آية ، وتكون عبرة لأهل البلاء ، وعزاء للصابرين ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فيه شفاء . وقرب عن أصحابك قربانا واستغفر لهم ، فإنهم قد عصونى فيك .

فركض برجله فانفجرت له عين ماء فدخل فيها فاغتسل . فأذهب الله تعالى ما كان فيه من البلاء ، ثم إنه خرج وجلس فأقبلت امرأته فقامت تلتمسه فى مضجعه فلم تجده ، فقامت متكدرة كالوالهة فمرت به فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا؟ فقيل لها : وهل تعرفينه إذا رأيتيه ؟ فقالت : نعم وكيف لا أعرفه ؟ فتبسم وقال : ها أنا هو . فعرفته لما ضحك ؛ فاعتنقته .

قال ابن عباس : والذى نفسى بيده ما فارقته من عناقه حتى مر بهما كل من

كان لهما من المال والولد . وذلك قوله تعالى ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ الآية .

واختلف العلماء فى وقت ندائه ومدة بلائه والسبب الذى قال لأجل ﴿ مَسَّنِيَ الضُّر ﴾ حدثنا الإمام الحسين محمد بن على بن سهل إملاء فى شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وثلثمائة أخبرنا أبو طالب عمر بن الربيع بن سليمان الخشاب بمصر، أخبرنا يحيى بن أيوب بن العلاف ، أخبرنا سعيد بن أبى مريم ، أخبرنا نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : «إن نبى الله أيوب لبث فى بلائه ثمانية عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان . فقال أحدهما لصاحبه : والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين . فقال صاحبه : وما أدراك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة فى البلاء لم يرحمه الله ، ويكشف ما به ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك . فقال أيوب : ما أرى ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أنى كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتى فأكفّر عنهما كراهة أن يذكر الله تعالى إلا فى حق » قال : وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها . وذلك أن الله تعالى أوحى إلى أيوب فى مكانه : أن ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِك ﴾ الآية . فاستبطأته فذهبت لتنظر ما شأنه . فأقبل عليها . وقد أذهب الله تعالى عنه ما أصابه من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت له : هل رأيت نبى الله المبتلى ؟ فقال : إنى أنا هو وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله تعالى سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورِق حتى فاض .

ويروى : أن الله تعالى أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يحثو منها فى ثوبه. فناداه :يا أيوب ألم أغنك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن

فضلك ورزقك ورحمتك . ومن يشبع من نعمتك ؟

وقال الحسن : كان أيوب عليه السلام مطروحا على كناسة فى مزبلة لبنى(١) إسرائيل سبع سنين وأشهراً ، تختلف فيه الدواب . وقال وهب : لم يكن بأيوب أكلة وإنما كان يخرج منه مثل ثدى النساء ثم يتفقأ؟ . قاله الحسن . ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه ، غير رحمة امرأته . صبرت معه تخدمه وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمده ، وأيوب على ما به لا يفتر عن ذكر الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه الله ، فصرخ عدو الله إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيوب . فلما اجتمعوا عليه قالوا : ما حاجتك ؟ قال لهم : أعيانى هذا العبد . سألت ربى أن يسلطنى على ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولداً ، فلم يزده ذلك إلا صبرا وثناء على الله ، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقى على كناسة لا يقربه إلا امرأته ، وقد افتضحت من ربى ، فاستعنت بكم لتعينونى عليه . فقالوا له : أين مكرك ؟ أين علمك الذى أهلكت به من مضى ؟ قال : بطل ذلك كله فى أيوب . فأشيروا علىّ ، قالوا : نشير عليك بما أتيت به آدم حين أخرجته من الجنة : من أين أتيته ؟ قال : من قبل امرأته . قالوا : فشأنك بأيوب من قبل امرأته ، فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها . قال : أصبتم . فانطلق حتى أتى امرأته وهى تطلب الصدقة . فتمثل لها فى صورة رجل . فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو ذاك يحك قروحه ، وتتردد الدواب فى جسده . فلما سمع منها ، طمع أن تكون كلمة جزع ، فوسوس لها وذكّرها ما كانت فيه من النعيم والمال ، وذكّرها جمال أيوب وشبابه ، وما هو فيه اليوم من الضر ، وأن ذلك لا ينقطع عنه أبداً . قال الحسن : فصرخت فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال لها : ليذبح أيوب هذه لى وسيبرأ . قال : فجاءت تصرخ . وقالت : يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ولا

(١) قوله لبنى إسرائيل فيه نظر ؛ لأنه كان فى الأردن . على قولهم .

يرحمك ؟ أين المال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين ثوبك الحسن ؟ قد تغير وصار مثل الرماد . وأين جسمك الحسن ؟ قد بلى وهو يتردد فيه الدود . اذبح هذه السخلة واسترح . فقال لها أيوب : أتاك عدو الله فنفخ فيك فأجبتيه . ويلك أرأيت ما تبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة ؟ من أنعم بها علينا؟ قالت : الله . قال فكم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة . قال : فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت : منذ سبع سنين . قال : ويلك والله ما عدلت ولا أنصفت ربك . ألا صبرت فى هذا البلاء الذى ابتلانا به ربنا ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء، والله لئن شفانى لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتنى أن أذبح لغير الله تعالى ، وطعامك وشرابك الذى تأتينى به ، علىّ حرام لا أذوق مما تأتيننى به شيئا ، بعد أن قلت هذا . فاغربى عنّى لا أراك . فطردها . فذهبت .

فلما رأى أيوب امرأته وقد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق؛ خر لله ساجدا وقال ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ ثم رد الأمر إلى ربه وسلم فقال: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فقيل له : ارفع رأسك فقد استجيب لك ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ الآية . فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل فلم يبق من دائه شىء ظاهر إلا سقط أثره ، وأذهب الله منه كل ألم وداء ، وكل سقم . وعاد إليه شبابه وجماله أحسن مما كان، وأفضل مما مضى . ثم إنه ضرب برجله فنبعت عين ماء فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج ، فقام صحيحا وكسى حلّة . قال : فجعل يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى شيئا مما كان له من أهل وولد ، ومال إلا قد ضاعفه الله تعالى ، فخرج حتى جلس على مكان مشرف . ثم إن امرأته قالتْ أرأيت إن كان قد طردنى ، إلى من أكله ؟ أدعه حتى يموت جوعا وعطشا ويضيع فتأكله السباع ؟ فوالله لأرجعن إليه ، فرجعت فلم تر الكناسة ولا الحال التى كانت تعهدها ، وقد تغيرت الأمور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وأيوب ينظرها . قال : وهابت صاحب الحلّة أن تأتيه فتسأله. فأرسل إليها أيوب فدعاها . وقال لها :ما تريدين يا أمة الله؟

فبكت وقالت : أريد ذلك المبتلى الذى كان منبوذا على هذه الكناسة . لا أدرى أضاع أم ماذا فعل به ؟ قال أيوب عليه السلام : ما كان منك ؟ فبكت وقالت : بعلى. فهل رأيته ؟ فقال : وهل تعرفيه إذا رأيتيه ؟ قالت : وهل يخفى علىّ ؟ ثم إنها جعلت تنظر إليه وهى تهابه ، وقالت : ما أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحا؟ قال : فأنا أيوب ، أمرتينى أن أذبح لإبليس ؛ فإنى أطعت الله وعصيت الشيطان ، فردّ علىّ ما تريدين .

قال وهب : وقد سمعت أنه قال لها : لو أن صاحبك أكل طعاما ، لم يسم عليه ؛ لعوفى مما هو فيه من البلاء ، والله أعلم .

وأراد عدو الله أن يأتيها من قبلها.

ورأيت فى بعض الكتب : أن إبليس قال لرحمة : إن شئت اسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد عليك الأولاد والمال وأعافى زوجك أيوب . فأخبرته بما قال لها وما أراد . فقال : لقد أراد عدو الله أن يفتنك عن دينك. ثم إن أيوب أقسم إنعافاه الله ليضربنها مائة جلدة . فقال عند ذلك: ﴿ مسنى الضر ﴾ من طمع إبليس فى سجود حرمتى له ودعائه إياها وإياى إلى الكفر . قالوا : ثم إن الله تعالى رحم «رحمة» امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عنها . وأراد أن يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ جماعة من الشجر مبلغ مائة قضيب خفافا لطافا ؛ فيضربها ضربة واحدة . كما قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ الآية ، وقد كانت امرأة أيوب تتكسب وتعمل للناس وتجيئه بقوته . فلما طال عليها البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد ؛ التمست يوما من الأيام ما تطعمه ، فما وجدت شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف وأتته به . فقال لها : أين قرنك؟ فأخبرته فقال عند ذلك: ﴿ مسنى الضر ﴾ وقيل : إنما قال ذلك حين قصدت الدود قلبه ولسانه ، فخشى أن يعيا عن الذكر والفكر ، وإنما قال ذلك حين وقعت الدودة من فخذه . فأخذها وردها إلى موضعها ، وقال لها : كلى فقد

جعلنى الله طعامك . فعضته عضة زادتـه ألما على جميـع ما قاسى من عـض الديدان .

وقال عبد الله بن عمر : كان لإيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران على الدنو منه من نتن ريحه . فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم فى أيوب خيراً ما ابتلاه بما ترى . قال : ما سمع أيوب شيئا أشد عليه من تلك الكلمة ، وما جزع من شئ أصابه جزعه من تلك الكلمة ، فعند ذلك قال: ﴿ مسنى الضر ﴾ ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة شبعانا قط ، وأنا أعلم بمكان جائعا . فصدّقنى . فصدقه . وهما يسمعان . ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم أتخذ قميصا قط وأنا أعلم بمكان عريانا . فصدّقنى . فصدقه ، وهما يسمعان ، فخر لله ساجداً . وقيل : معنى ﴿ مسنى الضر ﴾ من شماتة الأعداء . يدل عليه : ما روى أنه قيل له بعد ما عوفى : ما كان أشد عليك فى بلائك ؟ فقال : شماتة الأعداء . وأنشد بعضهم فى معناه :

كل المصائب قد تمر على الفتى .·. فتهـون غـير شمـاتة الحسـاد

إن المصائـب تنقضـى أيامهـا .·. وشمـاتة الأعــداء بالمرصــاد

وقال الجنيد فى هذه الآية : عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال . وذلك قوله تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ﴾ الآية .

واختلف العلماء فى كيفية ذلك . فقال قوم : لما ابتلى الله أيوب فى الدنيا مثّل له أهله . فأما الذين هلكوا فإنهم لم يُردّوا عليه فى الدنيا وإنما وعد الله أيوب أن يؤتيه إياهم فى الآخرة . وقال وهب : كان له سبع بنات وثلاث بنين . وقال آخرون : بل ردهم الله تعالى إليه بأعيانهم وأعطه أهله ومثلهم معهم . وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب . قالوا : أحياهم الله تعالى وآتاه مثلهم . وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

ذكر : أن عمر أيوب ثلاثا وتسعين سنة[١] وأنه أوصى عند موته إلى ابنه حومل وأن الله بعث بعده بشر بن أيوب نبيا . وسماه ذا الكفل ، وأمره بالدعاء إلى توحيده ، وأنه كان مقيما بالشام طول عمره حتى مات ، وكان مبلغ عمره خمسا وتسعين سنة ، وأن بشراً أوصى إلى ابنه عبدان ، وأن الله تعالى بعث بعده شعيبا عليه السلام . والله أعلم .

---

(١) وعاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين سنة [أى ٤٢ : ١٦]

قصة أيوب عليه السلام
فى
التـــوراة

المقدمـــة :

يبدأ هذا الكتاب[١] بالقول إن أيوب رجل صالح ولا عيب فيه ، غمرته الحياة بخيراتها ، وهو أمين لربّه . لكن أليس فى أمانته مصلحة لنفسه ؟

وجاء وقت خسر فيه كل شئ : خسر ماله وأملاكه وأولاده وصحته . فهل بقى أميناً لربه رغم ما حل به ؟

ويتساءل أيوب : من هو الله ؟ فإذا كان هو الإله العادل فلماذا حلت به كل هذه المصائب ؟ وحاول ثلاثة من أصدقائه أن يقنعوه أن مصائبه قصاص على خطاياه، فيقدمون له البراهين التقليدية عن سعادة البارّ وتعاسة الخاطئ ، أما أيّوب فيعارض نظرتهم . مقدماً لهم واقع الظلم الذى يعيشه البشر . ثم يثور على الصورة التى يرسمها أصدقاؤه عن الله ، ويردّد أنه برئ من أية خطيئة . ويجرى هذا كله بأسلوب شعرى يسيطر عليه معظم الحوار .

ثم يتدخل فى الحوار شخص آخر اسمه أليهو ، محاولاً إقناع أيوب أن الله يرسل الألم لتحذير الإنسان . وعلى أية حال لا يحق لأحد أن يسأل الله لماذا يفعل ما يفعل ؟

وأخيراً يتدخل الله ؛ فلا يقدم الجواب ، بل يطرح أسئلة جديدة . وهنا يعترف أيّوب بخطأه ، وأنه تكلم على الله دون أن يعرف حكمة الله .

وينتهى الكتاب بالعودة إلى أيّوب ، فيؤكد الله أن أيّوب تكلم عليه

(١) النص : من ترجمة دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط بلبنان سنة ١٩٩٥ .

بالصواب. ثم يردّ الرب له ضعف ما خسر .

من هو الله حقا؟ هذا هو السؤال الذى يطرحه أيوب ، ونطرحه نحن على ذواتنا اليوم ، فيتزعزع ما نحسبه نحن يقيناً . أيّوب ينفى تصوراتنا عن حكمة الله ، فيساعدنا على إزالة الأصنام والصور الخاطئة عنه فى عقولنا .

النـــــص :

الشيطان يجرب أيّوب

كان فى أرض[1] عوص رجل اسمه أيّوب ، وكان هذا الرجل نزيها مستقيما يخاف الله ويحيد عن الشر .وولد لأيوب سبعة بنين وثلاث بنات . وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم، وثلاثة آلاف جمل ، وخمس مئة فدان بقر ، وخمس مئة أتان ، وله عبيد كثيرون . فكان ذلك الرجل أعظم أبناء المشرق جميعا .

وكان بنوه يذهبون ويُقيمون وليمة فى بيت كل واحد منهم بدوره ، ويستدعون أخواتهم الثلاث ليأكلن ويشربن معهم . فإذا تمت أيام كل وليمة كان أيوب يبكر فى الغد فيصعد محرقات عن كل واحد منهم فيطهرهم [2]. وكان يقول: « لعل بنىّ خطئوا وجدّفوا على الله فى قلوبهم » هكذا كان أيوب يفعل كل الأيام.

وجاء الملائكة يوما للمثول أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضا بينهم . فقال الرب للشيطان : « من أين جئت؟ » فأجاب الشيطان : « من التجول فى الأرض والسير فيها » فقال له الرب : « هل استرعى انتباهك عبدى أيوب ؟ فهو لا مثيل له في الأرض لأنه رجل نزيه مستقيم يخاف الله ويحيد عن الشر » فأجاب

---

(١) أرض عوص تقع فى أرض أدوم ، جنوبى شرقى البحر الميت . رجع مرا ٤:٢١.
أيوب ربما يعنى المضطهد .

(٢) فيطهرهم . أو : فيقدسهم .

الشيطان[١]: « أيخاف أيوب الرب مجانا؟ ، أما سيّجت حوله وحول بيته وحول كل شيء له من كل جهة ؟ أما باركت أعماله فانتشرت مواشيه فى الأرض ؟ ولكن مد يدك الآن ومس كل شئ له ، فترى كيف يُجدف عليك فى وجهك » فقال الرب للشيطان : « ها أنا أجعل كل شئ له فى قبضة يدك ، ولكن إليه لا تمد يدك » وخرج الشيطان من أمام وجه الرب .

أيّـوب يخسر كل شئ له

وحدث يوما أن بنى أيوب وبناته كانوا يأكلون ويشربون خمراً فى بيت أخيهم الأكبر ، فأقبل رسول إلى أيوب وقال : « كان البقر تحرث والحمير ترعى بجانبها ، فانقضّ عليها بنو سبأ[٢] وأخذوها وقتلوا الرعيا بحد السيف ، ونجوت أنا وحدى لأخبرك » وفيما هو يتكلم ، أقبل آخر وقال : « سقطت نار الله من السماء وأحرقت الغنم والرعيان وأكلتهم ، ونجوت أنا وحدى لأخبرك » وفيما هو يتكلم، أقبل آخر وقال : « هجمت ثلاث عصابات من الكلدانيين[٣] على الجمال وأخذوها وقتلوا الرعيان بحد السيف ، ونجوت أنا وحدى لأخبرك »

وفيما هو يتكلم ، أقبل آخر وقال : « كان بنوك وبناتك يأكلون ويشربون خمراً فى بيت أخيهم الأكبر ، فهبت ريح شديدة طلعت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع ، فسقطت عليه فماتوا ، ونجوت أنا وحدى لأخبرك » فقام أيوب وشق ثوبه وجز شعر رأسه[٤] ووقع على الأرض ساجداً وقال: « عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود إلى هناك . الرب أعطى والرب أخذ . تبارك اسم الرب »

---

(١) الشيطان أو المشتكى: رج رؤ ١٢ : ١٠ .

(٢) بنو سبأ : بدو من جنوبى الجزيرة العربية دأبوا على الغزو .

(٣) الكلدانيين : بدو من الصحراء ، من شمالى شرقى الجزيرة لعربية .

(٤) شق ثوبه ، جز شعره : علامة الحزن . رج إر ٤١ : ٥ح .

وما خطئ أيوب مع هذا كله ، ولا عتب(١) على الله .

الشيطان يجرب أيّوب ثانية

وجاء الملائكة يوما للمثول أمام الرب ، وجاء الشيطان بينهم ، فقال الرب للشيطان : « من أين جئت ؟ » فأجاب الشيطان : « من التجول فى الأرض والسير فيها » فقال له الرب : « هل استرعى انتباهك عبدى أيوب ؟ فهو لا مثيل له فى الأرض لأنه رجل نزيه مستقيم يخاف الله ويحيد عن الشر ، وإلى الآن هو متمسك بنزاهته ، مع أنك حرضتنى عليه من دون سبب » فأجاب الشيطان : « نجا بجلده ! كل ما يملكه الإنسان يبذله عن نفسه . ولكن مد يدك ومس عظمه ولحمه ، فترى كيف يجدّف عليك فى وجهك »

فقال الرب للشيطان : « ها هو الآن فى قبضة يدك ، ولكن احفظ حياته » وخرج الشيطان من أمام وجه الرب وضرب أيوب بالجرب من باطن قدمه إلى قمة رأسه . فأخذ أيوب شقفة من الخزف ليحك جسده بها وهو جالس على الرماد . فقالت له امرأته : « أتبقى إلى الآن متمسكا بنزاهتك ؟ جدِّف على الله ومُت!» فقال لها أيوب :« كلامك هذا كلام امرأة جاهلة . انقبل الخير من الله ، وأما الشر فلا نقبله ؟» ومع هذا كله لم يخطأ أيوب بكلمة من شفتيه .

وسمع ثلاثة أصدقاء لأيوب بكل ما حلّ به من المصائب ، فأقبل كل واحد من مكانه :أليفاز التيمانى(٢) وبلدد الشوحى وصوفر النعمانى ، واتفقوا أن يذهبوا إلى أيوب ليرثوا لحاله ويعزّوه . فلما رفعوا أعينهم من بعيد لم يعرفوه ؛ تعالت أصواتهم بالبكاء وشق كل منهم ثيابه وذروا ترابا فوق رؤوسهم نحو السماء . ثم قعدوا معه على الأرض سبعة أيام بلياليها من غير أن يكلمه أحد بكلمة ، لأنهم رأوا

(١) ولا عتب على الله أو لم ينسب إليه عملاً معيباً .

(٢) التيمانى : من تيمان وهى مدينة أدومية ، اشتهرت بحكمة أهلها . رج إر ٤٩ :٧.
الشوحى : من قبيلة عربية قرب أرض عوص ، النعمانى : من قبيلة نعمة .

كم كانت كآبته شديدة .

ثم فتح أيوب فمه ولعن يومه وقال : « لا كان نهار ولدت فيه ، ولا ليل قال: حبل برجل ، ليكن ذلك النهار ظلاماً لا يتعهده الله من فوق ولا يشرق عليه نور، يتولاه الظلام وظل الموت ، وعليه يحل السحاب وتباغته كواسف النهار . ليت السواد أمسك ذلك الليل فلم يحسب بين أيام السنة ولا دخل فى عدد الشهور، ليته كان عاقرا ولا يسمع فيه هتاف الفرح ، يلعنه اللاعنون كل يوم ، الماهرون فى إثارة لاوياثان . ليت نجوم مسائه أظلمت فلم يجئه النور من بعد ، ولا أرى أجفان الفجر. فهو لم يُغلق على أبواب البطن ولا ستر الشقاء عن عينى . لماذا لم أمت من الرحم أو فاضت روحى عندما خرجت . لماذا قبلتنى الركبتان ، أو الثديان حتى أرضع ؟ إذاً لكنت الآن أرقد بسلام ، غارقا فى سبات مريح مع ملوك الأرض ووزرائها فى ما بنوه لهم من قصور ، مع الأمراء وذهبهم كثير وبيوتهم مملوءة بالفضة ، أو لكنت كمن يولد طِرحا ، ومثل جنين لا يرى النور ، هناك يكف الأشرار عن القلق ، وهناك يستريح المتعبون . هناك يطمئن الأسرى ولا يسمعون صوت المسخر ، هناك يتساوى الصغير والكبير ويتحرر العبد من سيده . لماذا النور للتعساء والحياة لمن نفوسهم مرارة ، المنتظرين الموت فلا يجئ ، الباحثين عنه بين الدفائن، الذين يفرحون حتى الابتهاج وينشرحون إذا وجدوا قبرا . لماذا النور لمن لا يرى طريقه ، لمن أغلق الله كل مجال حوله ؟ فإذا نواحى هو طعامى ، ودموع أنينى ماء لى . كل ما أخشاه ؛ يحلّ بى ، وما أفزع منه ؛ يصيبنى . فلا طمأنينة لى ولا سلام ، ويأتينى القلق فلا أستريح »

مداخلة أليفاز : هنيئاً للرجل الذى يؤدبه الرب

وقال أليفاز التيمانى : « إن أجبناك بكلمة فهل تتحمل ؟وهل تقدر أن تلزم الصمت؟ ما أكثر الذين أرشدتهم ، وكم شددت من أيد مرتخية ، كلامك كم أنهض العاثرين وثبّت من ركب راكعة ؟ والآن أُصبتَ فما تحملت ، وجاءتك

الضربة فارتعبت ، أين تقواك وهى اعتمادك ، وحسن سيرتك وهى رجاؤك ؟ أتذكر واحداً بريئاً هلك ، أو رجلاً مستقيما أبيد ؟ أما رأيت أن من يفلح الإثم ويزرع الشقاء إياهما يحصد ؟ بنسمة من فم الله يبيد ، وبريح من أنفه يفنى ، فينقطع صوت زئير الأسد وتنكسر أنياب الأشبال . لأن الأسد بغير فريسة يموت ، وتبدد جِراء اللبوة . تلقيت مرة كلاما خفيا ، تسلل همسا إلى أذنى ، فى هواجس أحلام الليل عند وقوع سبات على الناس ، فأصابنى خوف ورعدة ، منهما رجفت عظامى. ومرت ريح على وجهى فاقشعر الشعر فى جسدى . رأيته واقفا هناك ، ولكن ما تبينت وجهه ،كأنه خيال أمام عينى. وبعد سكوت سمعت صوتا : هل الإنسان برئ أمام الله ، أم المخلوق طاهر أمام خالقه ؟ نرى الله لا يأتمن عبيده وإلى ملائكته ينسب الحماقة ، فكيف الساكنون بيوتا من طين، الذين أساسهم فى التراب؟ ألا يسحقون كما يسحق العث ، وبين ليلة وضحاها يحطمون ويبيدون بلا أثر إلى الأبد ؟ أوتاد خيامهم تقتلع منهم ويموتون ولا رجعة لهم. يموتون وهم لا يعرفون .

إن دعوت ، فهل من مجيب ؟ وإلى أى القديسين تلتفت ؟ فالغبى يقتله الغيظ والأحمق يميته الحسد . رأيت الغبى يمد جذوره وسرعان ما تقتلع دياره. بنوه بعيدون عن الخلاص ، يسحقون فى الباب ولا منقذ ، حصيدهم يأكله الجياع ، ويأخذونه حتى من الشوك ، وقوتهم يمتصه العطاش . فالبلية لا تخرج من التراب ، ولا الشقاء ينبت من الأرض . الإنسان يولد للشقاء ، وللتحليق تولد الصقور . لو كنت مكانك لدعوت الله ، وإليه تعالى رفعت أمرى . عظائمه لا يدركها أحد ، وعجائبه لا يمكن أن تحصى . على الأرض ينزل أمطاراً وعلى البرارى يسكب المياه . يرفع الوضعاء إلى العلاء وإلى الخلاص ينتشل الحزانى . مقاصد المحتالين يبطلها ، فلا تصنع أيديهم شيئا . يمسك الحكماء بحيلتهم ، ومشورة الماكرين تصير جهلا ، ففى النهار يواجهون ظلاما ويتلمسون الظهر كالليل . يخلّص المقهورين من أشداقهم والمساكين من يد طاغية ، فيكون لكل ذليل رجاء . ويسد الجائرون أفواههم . هنيئا

لمن يؤدبه الله ، ومن لا يرفض مشورة القدير . يجرح ولكنه يضمد ، ويضرب ويداه تشفيان . ينجيك ست مرات من الضيق وفى السابعة لا يمسك سوء ، فى المجاعة يفديك من الموت ، وفى القتال من حد السيف ، من سوط اللسان تستتر ولا تخاف العدوان إذا جاء . تضحك على العدوان والجوع ولا تخشى وحوش الأرض. تعاهدك حجارة الحقل وتسالمك وحوش البر . تجد خيمتك فى سلام أكيد وقطيعك كاملا حين تتعهده . ترى ذريتك تزداد كثيرا .ونسلك ينمو كعشب الأرض . تدخل القبر فى تمام الشيخوخة ، كما ترفع الأكداس فى أوانها . كل هذه اختبرناه وهو حق ، فاسمعه واعمل به لخيرك »

جواب أيّوب : يشتكى إلى أصحابه

فأجاب أيوب : « لو أن بؤسى ومصائبى جميعا ، تقدر وتوزن فى ميزان لكانت أثقل من رمال البحر . وكيف لا يكون كلامى لغوا وأهوال الله تمحقنى وسهامه تنغرز بى وسمومها تمتص روحى . أينهق الحمار على العشب ، أو يخور الثور على علفه ؟ أيؤكل الطعام التافه بلا ملح ، أم يكون لبياض البيضة طعم ؟ طعام كانت تعافه نفسى ، صار قوتى فى زمن بلائى . من لى بأن تلبى طلبتى ، وليت الله يعطينى رجائى ! ليته عن رضى يحطمنى ويطلق يده فيقطع حياتى . ولكن لى تعزية بعد تبهجنى فى عذاب لا يحتمل : أننى لم أنكر كلام القدوس . ما هى قوتى حتى أنتظر؟ وما مصيرى حتى أطيل حياتى ؟ أقوة الحجارة قوتى ، أم لحمى أنا من نحاس؟ أبقيت فى داخلى قدرة ؟ أما كل عون تباعد عنى ؟ من منع الرحمة عن صديقه تخلى عن مخافة القدير . إخوانى يمرون كالسيل ويعبرون كأنهار الأودية وعليها يتكاثف الجليد وتزداد من ذوبان الثلج . لكن ما إن تسيل حتى تنقطع، وفى الحر تختفى من مكانها . فيحول المسافرون طريقهم ويتوغلون فى التيه فيبيدون . قوافل تيماء تبحث عنها ، وركبان سبأ بها يأملون . يجدون ثقتهم فى غير محلها ، فحين يصلون إليها يخيبون . والآن هكذا حالكم معى ، رأيتم نكبتى

فأصابكم فزع . أقلت لكم : أعطونى شيئا ، أو من مالكم أنفقوا على ؟ أو انقذونى من يد الخصم، أو افتدونى من يد الطاغية ؟ أرونى الصواب فأسكت ، فهمونى فى أى شئ ضللت. كلام الحق ما أحلى وقعه ، أما لومكم لى فلا حق فيه. أتحسبون كلامى يستحق اللوم ، وهو كلام يائس يذهب فى الريح ؟ تلقون على اليتيم قرعة وتبيعون صديقكم بالرخص . والآن هيا وانظروا إلىّ ، فأنا فى وجوهكم لا أكذب . عودوا عنرأيكم ولا تجوروا ، فتعود إلى براءتى . هل تجدون جورا على لسانى ، أم أنه لا يتبين ما هو حق »

جواب أيوب : يشتكى إلى الله

« الإنسان لاجئ على الأرض ، وكأيام الأجير أيامه ! كالعبد المشتاق إلى الظل ، والأجير الذى ينتظر أجرته . شهور من البؤس نصيبى ، وليال من الشقاء قدرت لى . أنام فأقول : متى الفجر ؟ وأقوم فأقول : ما أبطأ المساء . لحمى كساه الدود والقروح ، وجلدى تشقق قيحا وسال . أيامى أسرع من مكوك الحائك ، نفدت وما من رجاء .

تذكر : حياتى نسمة ريح ، وعينى لن ترى الخير بعد ، تنظر إلىّ ولا ترانى، وتلتفت عيناك فلا أكون . مثلما يضمحل السحاب ويزول ، كذلك من يهبط عالم الموت ؛ لا يصعد . إلى بيته أبداً لا يعود ، ومكانه لا يتعرف إليه . لذلك لا أمنع فمى عن الكلام شاكيا بمرارة النفس ضيقى . أبحر أنا أو أنا تنين لتجعل حارسا على؟ إن قلت : فراشى يعزينى ومضجعى يخفف شكواى ؛ روعتَنى بفظائع الأحلام وباغتنى برهيب الرؤى ، فأرى الخنق أفضل شئ لى والموت خيرا من عذابى. من الأسى لا أحيا طويلا . دعنى فأيامى نسمة . ما الإنسان لتحسبه عظيما،أو لتشغل به قلبك ؟ تراقبه صباحا بعد صباح ، وفى كل لحظة تمتحنه ؟ إلى متى تنصرف عنى ؟ فتمهلنى لأبلع ريقى ؟ خطئت فماذا أعمل لك ؟ أنت يا رقيب البشر ، لماذا جعلتنى هدفا لك ، وحملا ثقيلا عليك ؟ لماذا لا تتحمل معصيتى ،

ولا تغض النظر عن إثمى ؟ قليلاً وأرقد فى التراب ، وتبكر فى طلبى فلا أكون »

فأجاب بلدد الشوحى : « إلى متى تتكلم هذا الكلام ، فأقوال فمك مثل ريح عاصفة ؟ أيحوّل الله مجرى العدل ، أم يشّوه وجه الحق ؟ إن كان بنوك خطئوا إليه ، فإلى يد معصيتهم أسلّمهم . وأنت إذا بكّرت إلى الله وطلبت رحمة القدير ، وكنت نقيا ومستقيما ، ففى الحال يغار عليك ويلبى صدق نواياك ، فما كان قليلا فى صغرك يكثر جداً فى آخرتك . سائل الأجيال السالفة وتأمل تجارب آبائهم ، فنحن بنو البارحة ولا علم لنا ، وأيامنا على الأرض ظل . هم الذين يعلمونك ويخبرونك ، ومن قلوبهم يقولون لك : أينمو الخيزران بلا مستنقع ، أم ينبت القصب من غير ماء ؟ تقطعه ولو فى نضارته ، فييبس قبل كل النبات . هكذا يكون من نسى الله ، ويخيب رجاء كل كافر به . تتقطع أمانيه مثل الخيط ومأمنه كبيت العنكبوت . يستند إليه فلا يثبت ، ويتمسك به فلا يقوم . يكون كالخضير تجاه الشمس ، يمد غصونه على البستان ، فتشتبك عروقه فى الرجمة ، وبين الصخور يستمد حياته . لكنك لو قلعته من مكانه لأنكرته . قلت : ما رأيتك ! يذبل مطروحا على الطريق ، وينبت فى تربته آخر . الله لا يرفض النزيه ولا يأخذ بأيدى أهل السوء . إذاً سيمتلئ فمك بالضحك وشفتاك بهتاف الفرح ، ويلبس العار جميع من يبغضونك . وخيام الأشرار تزول »

جواب أيوب : الله هو الأقوى

فأجاب أيوب : « أعرف هذا الأمر حق المعرفة ، ولكن كيف يتبرر الإنسان عند الله ؟ لو شاء أن يجادله بالحجج لما أجاب عن حجة من ألف . الله حكيم القلب جبار . من الذى يعانده ويسلم ؟ يزحزح الجبال فلا تستقر ، يقلبها فى ساعة الغضب . يزلزل الأرض من مكانها ، فتتزعزع جميع أعمدتها . يأمر الشمس فلا تشرق ، ويختم على النجوم فتظلم . من بسط السماوات غيره ، ويدوس أمواج البحر ؟ النعش والجوزاء من صنعه ، والثريا وكواكب الجنوب . عظائمه فوق حد

الإدراك وعجائبه تفوق العد . يعبر قدامى فلا أراه ، ويمر بى فلا أتبينه . إذا أماتنى فمن يرده ؟ أو يقول له : ماذا تفعل ؟ غضب الله لا يرده أحد ، وأعوان رهب يسجدون له . فكيف لى أن أجيب الله وأختار كلماتى معه ؟ ولو كنت بريئا لا أجيب فخصمى نفسه حاكمى . وإن أنا دعوته فأجابنى ، فهل تراه يستمع لقولى ؟ وهو الذى يرانى كشعرة ، ويزيد جروحى لغير سبب . لا يتركنى أستعيد أنفاسى ، ويملأنى فأمتلى مرائر . أبالقوة ؟ فانظروا قوته . أبالقضاء فمن ترى يحاكمه ؟ إن محقاً فكلامى يديننى ، أو نزيها فهو يعلن ذنبى . أنزيه أنا ؟ لا أعرف . أواه كم سئمت حياتى ! لا فرق عندى . لأن الله يبيد النزيه والشرير على السواء . يضرب فيميت فى الحال ، ويستهزئ بشقاء الأبرياء ، يوقع البلاد فى يد الشرير ويحجب وجوه قضاتها . إن لم يكن فمن يكون ؟ أيامى أسرع من عدّاء تمر ولا ترى خيرا . تنطلق كزورق من قصب ، كنسر ينقض على فريسته . إن قلت سأنسى شكواى وأبدل ملامحى وأبتسم ؛ تخوفت من كل أوجاعى لعلمى أنك لا تبرئنى . أنا معدود فى الأشرار فلماذا أتعب بغير فائدة ؟ لو اغتسلت بمياه الثلج ونظفت يدى بماء الرماد ، لغطسنى تغطيسا فى الوحل حتى تعافنى ثيابى . أهو مثلى بشر أجاوبه لنحضر كلانا أمام القضاء ؟ وما من حكَم بيننا يمد يده ويفصلنا ليرفع عنى عصاه ولا تروعنى مهابته ، فأتكلم بحرية ولا أخاف منه ؛ لأنى من تلك التهم برئ .

جواب أيوب : خلقنى الله ليدمرنى :

« سئمت حياتى فسأبدى شكواى ولو تكلمت بمرارة نفس ، فأقول لله : لا تحكم علىّ . لماذا تخاصمنى؟ أخبرنى . أيطيب لك أن تظلم ؟ أن ترفض ما صنعت يداك وترفض عن مشورة الأشرار ؟ ألك عينان من لحم ودم ، وهل كنظر الإنسان تنظر ؟ هل كأيام الإنسان أيامك ، أم سنينك كسنين بنى البشر ؟ حتى تفتش باحثا عن ذنوبى وتمعن فى الفحص عن خطاياى ، وأنت تعلم جيداً أنى برئ ولا منقذ لى من قبضتك . يداك كوّنتانى وصنعتانى ، فلماذا تلتفت وتمحقنى ؟ من الطين

جبلتنى، تذكرْ ! والآن إلى التراب تعيدنى ؟ سكبتنى كاللبن الحليب وجعلتنى رائبا كالجبن ؟ كسوتنى جلداً ولحما وحبكتنى بعظام وعصب . منحتنى حياة ورحمة ، وعنايتك حفظت روحى . كتمت هذا كله فى قلبك ولكنى أعرف ما غايتك : تراقبنى إن أنا خطئت ، ومن آثامى لا تبرئنى . إذا أذنبت فالويل لى ، وإن تبررت فلا أرفع رأسى ، لأنى شبعت من الهوان وارتويت من شدة العناء . وإن ارتفعت تصطادنى كالأسد وتعود فتضربنى أيضا . تجدد عدوانك لى وتضاعف علىّ غيظك، وجيوشك تتناوب ضدى . لماذا أخرجتنى من الرحم ؟ إذاً لمت ولم ترنى عين وكنت كأننى لم أكن ، فأحمل من الرحم إلى القبر . أيامى قليلة فأشفق علىً ودعنى فأنتعش قليلاً ، قبل أن أمضى ولا أعود ، إلى أرض عتمة وظلال موت(١) ، حيث السواد حالك ولا نظام ، والضياء كالظلام الدامس »

مداخلة صوفر : الرجوع إلى الله

فأجاب صوفر النعماتى : « أما للكلام من رد ، أم يكون الحق للرجل المفوّه؟ بيانك هذا أيسكت الناس ؟ أم تتهكم ولا من يجاوبك . تقول : « آرائى لا عيب فيها ، وأنا برئ فى عينيك » ليت الله يتكلم إليك ويفتح شفتيه ليجيبك ، ويخبرك بتعاليم الحكمة لتضمن لك صواب الرأى ، فتعلم أن الله يحاسبك على ما ارتكبت من المعاصى . أتدرك عمق أعماق الله أم يحيط فهمك بكمال القدير؟ هو أعلى من السماء فماذا تفعل ؟ وأعمق من الموت فماذا تعرف ؟ أطول من الأرض مداه ، وأعرض من البحر وسعه . يمر متى شاء فمن يوقفه ؟ ويجرى أحكامه فمن يرده ؟ يميز أهل السوء جميعا ، وإن أبصر الإثم يتبينه . أيصير فاقد العقل عاقلاً ، أم يولد حمار الوحش إنساناً ؟ لو وجهت قلبك إلى الله وبسطت إليه كفيك ، ولو أبعدت يدك عن الإثم ومنعت الجور أن يسكن خيامك ، لرفعت وجها لا عيب فيه ولكنت ثابتا ولا تخاف . تنسى الشقاء الذى أصابك ، وإن ذكرته فكسيل عبر ، ويكون

(١) دليل على يوم القيامة .

عمرك أبهى من الظهيرة ، وظلامه مثل نور الصباح . تطمئن لما لك من رجاء، وتحرس فتنام فى أمان .تستريح ولا يرعبك أحد ، بل كثيرون يستعطفون وجهك . أما عيون الأشرار فتكل ، وكل ملجأ لهم يبيد ، ولا يبقى لهم من رجاء غير أن يسلموا الروح »

فأجاب أيوب : « يا لكم من رجال كاملين وفى موتكم تموت الحكمة ! لكن فهمى لا يقل عن فهمكم ،فمن يجهل مثل هذه الأمور ؟ هل صرت أضحوكة لأصدقائى لأنى دعوت الله فأذلنى . أأضحوكة يكون البرئ النزيه ؟ الويل للمسكين عند أصحاب الشأن ، والضربة القاضية لمن تزل قدمه . خيام المعتدين فى رغد من العيش والأمان للذين يغيظون الله وينفضون أيديهم من إلههم . والآن سل البهائم فتعلمك وطيور السماء فتخبرك ، أو سل نبات الأرض فيريك ، وأسماك البحار فتحدثك . فما من هؤلاء من لا يعلم أن هذا من صنع يد الله ، وفيها نفس كل حى وأرواح البشر أجمعين ؟ بالأذن تمتحن الأقوال ، كما بالحنك يذاق الطعام . الحكمة عند حلول المشيب ، والفطنة فى طول الأيام . لله العلم والجبروت ، وله وحده المشورة والفهم . ما يهدمه الله لا يبنى ، ومن يغلق عليه يفتح له . يحبس المياه فتجف ، ويطلقها فتقلب الأرض . عنده العزة وصواب الرأى ، وله الضال ومن يضله . يسلب أهل الرأى رأيهم ، ويجعل القضاة حمقى . يحل وشاح الملوك ويشد أحقاءَهم بقيود . يسلب الكهنة مشورتهم ويقلب الثابتين فى مكانهم . يلغى كلام الفصحاء ويسلب الشيوخ تعقلهم . يصب الهوان على الأكارم ويزيل تفوق الجبابرة . يكشف عن الأعماق ظلامها ويخرج ظلال الموت إلى النور . يكثر الشعوب ويبيدها ، ويوسع للأمم ويزيلها . ينزع عقول حكام الأرض ويجعلهم فى تيه بلا طريق . يتلمسون فى الظلام ولا نور ، ويترنحون ترنح السكارى .

رأت عيناى هذا كله . سمعته وتبينته أذناى . ما تعرفون أعرفه مثلكم ، لا أقصر عنكم فى شئ . لكننى أخاطب القدير وأريد أن أعاتب الله . فأنتم تلفقون

الكلام وتُطبِّبون وطبكم باطل . ليتكم تلزمون الصمت ، فتبرهنوا بذلك عن حكمة . والآن فاسمعوا حججى وأصغوا جيداً إلى دعواى . ألأجل الله تتكلمون جوراً وفى سبيله تنطقون بالبهتان . أم أنتم تحابون الله ، وعن دعواه تدافعون ؟ إذا فحصكم أيكون لخيركم ، أم تسخرون به كأنه إنسان ؟ بل أشدً التوبيخ يوبخكم لأنكم تحابونه فى الخفاء . أفما يرهبكم جلاله ، ويستولى عليكم خوفه . أقوالكم أمثال من رماد وأجوبتكم أجوبة من طين . أسكتوا عنى فأتكلم أنا وليصبنى من الله مهما أصاب . شوكى أقلعه بيدى وأحط روحى فى كفى . لو قتلنى الله لما قاومته، بل لناقشت سلوكى لديه . هو حقا مخلّصى الوحيد ، بينما الكافر لا يثبت أمامه . فاسمعوا كلامى بانتباه وأميلوا آذانكم إلى صوتى . ها أنا أعددت دعواى ، وأعرف أنى على حق . إن كان الله يخاصمنى فأنا أسكت وأسلم الروح. أمرين يا ألله لا تفعل بى ، وإلا تواريت عن وجهك : أن تبعد يدك عنى ولا تدع هولك يرعبنى ، وأن تتكلم أنت فأجيب أو أتكلم أنا فتجاوبنى. كم لى من الآثام والخطايا ؟ عرفنى معصيتى وخطيئتى. لماذا تحجب وجهك عنى ،وتحسبنى عدوا لك ؟ أتهاجم ورقة فى الريح وتطارد قشة يابسة ؟ ألتكتب على تهما مرة وتورثنى آثام صباى ؟ تجعل رجلى فى المقطرة وتراقب آثار قدمى . فأبلى كخشب نخره السوس وكثوب أكله العث .

الإنسان مولود المرأة ، قليل الأيام ، كثير القلق . كالزهرة ينبت ويذوى ، وكالظل يمضى ولا يقف . أعلى مثلى تحملق عيناك . وبه تأتى ليحاكم أمامك ؟ من يخرج طاهراً من نجس ؟ لا أحد سواك . لا أحد . أما أيامه محدودة منك ، وعدد شهوره معين عندك ، وله قضيت أجلا لا يتعداه . فانصرف عنه ودعه وشأنه ليقضى مثل الأجير أيامه . للأشجار رجاؤها فإن قطعت تفرخ ثانية وفروخها لا تزول ، وإن تعتقت فى الأرض جذورها أو مات فى التراب جذعها ، فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعا كغرس جديد . أما الإنسان فيموت ويبلى ، ومتى أسلم الروح فأين هو ؟ البحر تنفذ مياهه ، والنهر ينشف ويجف ، والإنسان يرقد ولا يقوم ، وتزول

السماوات قبل أن يفيق وينهض ثانية من رقاده[١]. ليتك تخفينى فى عالم الموت وتسترنى حتى يرتد غضبك وتضرب لى موعداً فتذكرنى . لو كان الإنسان يموت فيحيا لانتظرت كل أيام شقائى إلى أن يأتى إلىّ الفرج . حين تدعونى فأجيبك وتشتاق إلى صنع يديك . ولا تعود تحصى خطواتى وتراقب يا ألله خطاياى ، بل تتغافل عنها وتكتمها وتستر علىّ ذنوبى .ومثلما يسقط الجبل ويرتمى وتتزحزح الصخور من مكانها ، وتبرى المياه وجوه الحجارة وتجرف سيولها تراب الأرض ، هكذا تمحق رجا الإنسان . تغاليه بلا انقطاع فيهلك ، وتشوه وجهه ثم تطرده . هل بنوه مكرمون ؟ لا يعلم ، أم هم مهانون ؟ لا يلاحظ . يتوجع لكن على جسده، وينوح لكن على نفسه »

فأجاب أليفاز التيمانى : « أحكيم وتجيب بكلام فارغ كمن فى جوفه ريح شرقية ؟ فتجادل سواك بحجج واهية وبأقوال لا يعول عليها ؟ بل أنت تنقض مخافة الله وتعيق كل خشوع أمامه . خبثك يملى عليكم كلامك ، وأنت تختار لسان الماكرين . أنا لا أدينك ، بل فمك . وشفتاك تشهدان عليك . أولدت أنت أول البشر أم أبدعك الله قبل التلال ؟ هل سمعت أسرار الله ، أم احتكرت الحكمة لنفسك ؟ ماذا تعرف أنت ولا نعرف ؟ أم ماذا فهمت وخفى عنا ؟ كم من الشيب عندنا والشيوخ ، أصغرهم فى السن أكبر من أبيك . ألا تكفيك تعزية الله لك والرفق فى كلامنا معك ؟ لماذا يغتاظ قلبك ؟ ولماذا تزورّ عيناك ؟ فيرتد على الله غضبك ويلفظ هذا الكلام فمك . ما الإنسان ليكون طاهراً ؟ ولدته امرأة فكيف يصلح . القديسون لا يأتمنهم الله ، والسماوات غير طاهرة عنده ، فكيف الإنسان وهو بغيض فاسد ، ويشرب الشر كأنه ماء . فاسمع لى لأوضح لك ، وبما رأيت أحدثك ، وبما رواه لنا الحكماء عن آبائهم ولم يكتموه . ولهم أعطيت هذه الأرض ولم يعبر بينهم غريب : الشرير يتوجع كل أيامه ، وللطاغية سنين معدودة . صوت

(١) دليل على يوم القيامة .

لرعب لا يفارق أذنيه، وفى السلام يفاجئه المعتدى. لا يأمن الهرب من الظلام، وعينه تترقب السيف. تنتظره النسور لتأكل جثته ويعرف أن مصيره مظلم. يباغته الضرر ويلاحقه الضيق كملك متأهب للقتال ، لأنه على الله مد يده وتجبر على الإله القدير. بادره بعنق متصلبة خلف ترسه الكثيف المحدب . مع أن الشحم كسا وجهه وربى الدسم على وركيه، يقيم فى مدن خراب وأنقاض بيوت مهجورة. لا يغنى ولا تدوم ثروته ، جذوره لا تمتد فى الأرض ، ولا تزول عنه الظلمة. اللهيب يلفح أغصانه ، والريح تذهب بأزهاره . لا يأمن الشر فيضل ، ويكون الشر جزاءه . يسرع إلى الزوال قبل يومه . وفروعه لا تعود إلى الاخضرار. يساقط كالكرمة حصرمه وينفض كالزيتون زهره . فالكافرون جماعة عقيمة ، والمرتشون خيامهم للنار . يحبلون بالفساد فيلدون الإثم ، وأحشاؤهم تتمخض بالمكر » .

فأجاب أيوب : « يا ما سمعت مثل هذا الكلام ، وكم تتعبنى تعزيتكم . أما للكلام الفارغ نهاية ؟ وماذا يحرضنى حتى أجاوب ؟ لو كنتم مكانى لتكلمت كلامكم ونمقته وهززت عليكم رأسى ، أو لشجعتكم بكلمات فمى إلى أن تكل من الحراك شفتاى . والآن إن تكلمت لا تزول كآبتى ، أو تمنعت فلا تذهب عنى . لأن الله هدّ عزيمتى ودمر كل جماعتى . قيدنى وشهد على ، وقام يتهمنى فى وجهى . مزقنى غضبا وأغضنى واحمرت عيناه علىّ . خصومى فتحوا عيونهم ، وفغروا أفواههم علىّ . يلطمون خدى تعييراً ويتعاونون على إهانتى . الله أسلمنى إلى الجائرين، وفى أيدى الأشرار طرحنى. كنت فى رغد فهشمنى، وبرقبتى أمسكنى وحطمنى . نصبنى هدفاً لرماياته . فتطايرت من حولى سهامه . يشق بها كبدى ولا يشفق ويسفك على الأرض مرارتى . يطعننى طعنة بعد طعنة ويهاجمنى هجوم الجبار . لففت على جلدى مِسحا ، ومرغت فى التراب جبهتى . احمر وجهى من البكاء ، وعلا جفنى ظلال الموت ، مع أن يدى بريئة من الجور ، وصلاتى لا تشوبها شائبة، يا أرض لا تسترى ما حل بى ، ولا يكن لصراخى انتهاء . لى من

الآن شاهد فى السماوات ومن يحامى عنى فى الأعالى . الشامتون بى هم أصدقائى، ولكن إلى الله تفيض عيناى . ليت الإنسان يعاقب الله ، كما يعاقب الإنسان صاحبه ، سنواتى أصبحت معدودة ، فأسير فى طريق لا أعود منه .

تلاشت روحى وانطفأت أيامى ، وصارت القبور وحدها مسكنى . وها أنا عرضة للساخرين ، وعيناى بمرارة تحدق إليهم . كن يا رب كفيلاً لى عندك ، فما من أحد يكفلنى غيرك . أُغلقت قلوبهم عن الإدراك ، فلم ترتفع لمعونتى يد . يجودون على أصحابهم بمالهم ، وعيون بنيهم يذيبها الحرمان .صرت مثلا عند الناس ووجها معرضا للبصق . عيناى كلتا من الغم ، وهيئتى كلها كالظل . يرانى العادلون فيندهشون ، ويغار الأبرياء على حالتى . لكن الصديق يلزم طريقه ، والطاهر اليدين يزداد قوة . وأنتم فعودوا وتعالوا إلى ، لعلى أجد فيما بينكم حكيما. أيامى عبرت ودنت ساعتى . وتبددت تمنيات قلبى . أما لهذا الليل من نهار؟ وهل باشتداد الظلام يقترب النور ؟ ما رجائى ؟ والقبر أصبح بيتى ، وفى الظلام فرشتُ مضجعاً لى . أقول للقبر : أنت أبى ، وللديدان : أنت أمى وأختى. فقولوا لى : أين إذاً رجائى ؟ وسعادتى من يا ترى يراها ؟ أيهبطان إلى أبواب القبر، ويستريحان بجانبى فى التراب ؟ »

فأجاب بلدد الشوحى : « متى تضع حداً لهذا الكلام ؟ فكر جيداً قبلما تتكلم . لماذا تحسبنا كالبهائم وتعتبرنا أغبياء فى نظرك ؟ أنت يا من يمزقه غضبه أيُهجر وجه الأرض لأجلك ، أو يزحزح الصخر من مكانه ؟ نور الشرير ينطفئ ، وسراجه عليه ينطفئ . النور يظلم فى مسكنه ، وسراجه عليه ينطفئ . تسرع خطواته إلى الشر وبمعصيته يكون سقوطه . قدماه تسوقانه إلى الشرك فيمشى على شبكة منصوبة . يأخذه فخها بكاحله ، ويطبق عليه فمه . الحبائل مطمورة فى الأرض والمصائد منصوبة فى الطريق . تفاجئه الأهوال من حوله وتتعقبه خطوة خطوة . يباغته الرعب وهو مطمئن ، وفى عزّه تحل به المصائب . يأكل الداء جلده، والموت المبكر أعضاءه . من أمان خيمته ينتزع ويساق إلى ملك الأهوال .

فى خيمته يسكن من لا يخصه ، ويرش كبريتا على مسكنه. أصوله تيبس من أسفل، وفروعه تزول من فوق، فيبيد ذكره من الأرض ، ولا يكون اسمه فى الساحات . يطرد من النور إلى الظلمة وينفى نفيا من المسكونة . لا تكون له ذرية ولا نسل ، ولا يبقى فى منازله ساكن ، فيتعجب الآخرون من مصيره ، ويرتجف الأولون من الرعب . هكذا تكون مساكن الأشرار ، وهذه حال من لا يعرف الله»

فأجاب أيوب : « إلى متى تعذبوننى وتسحقوننى سحقا بأقوالكم ؟ لعاشر مرة تهينوننى ولا تخجلون من تحقيرى. احسبونى ضللت حقا ؛ فضلالتى لا تخص سواى . وإن كنتم تستكبرون على وتدعمون حجّتكم بعارى ، فاعلموا أن الله بلانى وألقى شبكته علىّ فأصرخ من جوره ولا من مجيب ، وأدعو شاكيا ولا من منصف. طريقى سيجه فلا أعبر ، وبالظلام غطى سبلى . أزال عنى كرامتى ونزعها وهى إكليل رأسى . هدمنى إلى الأساس فهلكت ، ورجائى أقتلعه كشجرة. أضرم علىّ غضبه، ومن أعدائه اعتبرنى، غزاته زحفوا بأجمعهم وجاؤوا وحاصروا مسكنى. إخوانى ابتعدوا عنى ، وازدرى بى معارفى ، أقاربى وأصدقائى خذلونى. وأهل بيتى تناسوا ذكرى. إمائى حسبننى أجنبيا وغريبا ما رأينه من قبل . إن ناديت خادمى فلا يجيب ، ولو تضرعت إليه بفمى. لُهاثى صار كريها عند زوجتى. وجسمى نتنا لبنى أمى. حتى الصغار اشمأزوا منى. وفى غيابى يتكلمون على. رجالى كلهم يمقتوننى، والذين أحببتهم انقلبوا على. عظامى لصقت بجلدى ونجوت بجلد أسنانى. إرحمونى يا أصدقائى إرحمونى. يد الله هى التى ضربتنى . لماذا تهاجموننى مثل الله ولا تشبعون أبداً من لحمى ؟ ليت هناك من يكتب أقوالى، ليته يثبتها فى سفر ! أو ينقشها إلى الأبد فى الصخر. بقلم من حديد ورصاص. أعرف أن شفيعى حىّ وسأقوم آجلا من التراب (١)، فتلبس هذه الأعضاء جلدى وبجسدى أعاين الله. وتراه عيناى إلى جانبى ، ولا يكون غريبا عنى . كبدى ذاب فى داخلى حين قلتم :

(١) دليل على يوم القيامة .

« كيف نهاجمه ؟ وأية تهمة نجدها عليه ؟ » فحاذروا سيف النقمة ، عقابا لكم على جوركم لتعلموا كيف يكون القضاء »

فأجابه صوفر النعماتى : « أثرت بكلامك خواطرى ، فشعرت بحاجة إلى الرد . سمعت فى عتابك ما يهيننى ، فألهمتنى فطنتى ما أجيب : أما علمت من قديم الزمان ، منذ كان الإنسان على الأرض ، أن ابتهاج الكافرين قريب الزوال ، وأن أفراح الشرير لحظة . فلو بلغ السماوات ارتفاعه ، ومس رأسه أعالى السحاب؛ يضمحل كالغبار إلي الأبد ، فيقول الذى رآه : أين هو ؟ يطير كالحلم فلا يوجد ، وكرؤيا الليل يفر هاربا ، يلوح للعين ولا يعود ، ومكانه لا يراه من بعد . بنوه يرتضون الذل ،وجاهه يشوبه الكدر . عظامه امتلأت بعزم الشباب ، ومعه تضطجع فى التراب . يحلو فى فمه الشر ، وتحت لسانه يخفيه . يحمله ولا يتخلى عنه ، فيجتره فى حنكه. هو قوت يقلب معدته ، كسم الحية فى جوفه. يتقيأ أقوالا بلعها ، الله يخرجها من جوفه . يرضع سَمّ الحيات ، ولسان الأفعى يقتله . لا يبصر أنهاراً تجرى جداول من عسل وسمن . يرد مكاسب لا ينفقها ،ولا ينعم بثمار تجارته . يسحق الفقراء ويخذلهم ،ويغتصب ولا يبنى بيتا . نهمه لا يعرف القناعة، فعبثا تنقذه كنوزه . جشعه لا يبقى على شئ ، لذلك لا يدوم خيره . فى عز غناه يشعر بالفقر . ويد الشقاء تقع عليه . يصب عليه الله نار غضبه ، وعلى جسده يمطر سهامه . إن فر من سلاح الحديد ، فقوس النحاس يخترقه . من ظهره ينفذ السهم ومن كبده يلمع النصل . تتساقط عليه الأهوال ، ويُكمن له فى الظلام . تأكله نار لم ينفخ فيها ، وتلتهم ما بقى فى مسكنه . السماوات تكشف عن شره ، والأرض كلها تقوم عليه . تجرف السيول بيته ، وتجتاحه فى يوم الغضب . ذلك حظ الشرير من عند الله ، ونصيبه بأمر القدير »

فأجاب أيوب : « اسمعوا وأصغوا إلى كلامى ، فيكون هذا تعزيتكم لى ، اصبروا علىّ فأتكلم ، وبعد كلامى تسخرون . لو كانت شكواى على إنسان لما كان يضيق صدرى ؟ التفتوا إلىَّ ، أفلا تُدهشون ؟ ومع ذلك تلزمون الصمت . أتذكر ما

جرى لى فأرتعب ، وجسدى تأخذه الرعشة . لماذا يحيا الأشرار ويشيخون ، ومع الأيام يزدادون اقتداراً ؟ أولادهم يكونون أمامهم ، وذريتهم تتكاثر من بعدهم . بيوتهم آمنة من الفزع ، وعصا الله لا تُرفع عليهم . ثورهم يُلْقِح ولا يخطئْ ، وبقرتهم تلد ولا تسقط . أطفالهم يسرحون كالغنم ، وأولادهم يرقصون كالغزلان. يحملون الدف والكنّارة ، ويطربون بصوت المزمار . يقضون أيامهم فى نعيم ، ويهبطون الموت فى سلام . يقولون لله : « ابتعد عنا ، فلا نريد أن نعرف طرقك . من هو القدير حتى نعبده ؟ وماذا نستفيد إن رجوناه ؟ » فسعادة الأشرار فى أيديهم، وتفكيرهم بعيد من الله ، هل انطفأ سراج الأشرار أو نزلت بهم نكبة ؟ فصاروا كالتبن فى مهب الريح أو كالعصافة فى وجه الزوبعة ؟ أيدخر الله ذنوبهم لبنيهم ؟ ليتهم يجازون الآن فيعلمون : يرون هلاكهم بعيونهم ويتجرعون غضب القدير . فماذا يهمهم مصير بيوتهم بعدما يقضون أعمارهم المحتومة ؟ الله من يعلّمه المعرفة؟ وهو الذى يدين مَنْ فى الأعالى . هناك من يموت فى عز شبابه وفى منتهى السعادة والهناء . جنباه مليئان شحما ومخ عظامه طرئ . وهناك من يموت بمرارة من غير أن يذوق طعم السعادة . كلاهما يضطجعان فى التراب . ويكسو جسديهما الدود . نعم ، أعرف أفكاركم وما تنوونه لى ظلما . تقولون : « أين بيت الطاغية؟ وأين خيمة مسكن الشرير ؟» هكذا سألتم عابرى الطريق ، حين جهلتم دليلكم إليه. ألا يخلص الشرير ساعة النكبة ، وفى يوم الغضب ينجو ؟ فمن يُبيّن له مسلكه ؟ ومن يجازيه على ما فعل ؟ يُحمل حملا إلى المقابر ، ويسهر الحراس على مدفنه . يمشى جميع الناس فى مأتمه ، وله يطيب تراب الوادى . إذاً ، فباطلا تعزوننى ! وما أقوالكم إلا خداع »

فأجاب أليفاز التيمانى: « أينفع العاقل الله ؟ فالعاقل لا ينفع إلا نفسه . هل يرضى القدير إذا تبررت أو يستفيد إذا قومت طرقك ؟ هل على تقواك يؤدبك ويدخل معك فى محاكمة ؟ شرورك أنت جسيمة ، وآثامك لا حد لها ؟ إرتهنت

من أخيك بغير حق وسلبت العراة ثيابهم ؟ وحرمت العطشان ماء ، وحرمت الجوعان خبزك ؟ ببطشك امتلكت كل الأرض وبجاه رفيع سكنت فيها . أرسلت الأرامل فارغات وحطمت أذرع اليتامى . فكيف لا تحيط بك الفخاخ ولا يريعك رعب مفاجئ ؟ أو ظلام لا تبصر فيه ، أو سيل مياه يغمرك . الله فى أعلى السماوات ويشرف على ذرى النجوم . لذلك قلتُ : كيف يعلم الله ؟ أمن وراء الضباب يدين ؟ يحجبه السحاب فلا يُرى ، وعلى قبة السماوات يمشى . فتبعتَ المعالم القديمة وفى طريق وطئها الأشرار ؟ فهلكوا قبل أن يحين أوانهم وجرف السيل أساسهم ، قالوا: لله: « إليك عنا ! وماذا يفعل القدير لنا ؟» وهو الذى يملأ بيوتهم خيراً . فويحٌ لمشورة الأشرار . ينظر الصدّيقون فيشمتون ، والأبرار فيسخرون منهم. يقولون : ها خصومنا انقرضوا وآثارهم أكلتها النار ! تقرب إلى الله وصالحه، وبهذا يعود هناؤك .وتقبل شريعته من فمه ، وأودع كلامه فى قلبك . فإن تبت إلى القدير باتضاع وأبعدت الظلم عن مسكنك ، وحسبت الذهب كالتراب وسبائك أوفير كحصى الأودية ، وجعلت القدير وحده تبرك ، وكنوزاً من الفضة عندك ، فيكون القدير بهجتك وترفع إليه باعتزازٍ وجهك . تصلى له فيستمع إليك ويُعفيك من جميع نذورك . تطلب شيئا فيتم لك ، وعلى طريقك يشرق النور . مهما اتضعت ترتفع ، لأن الله مع الناظر بخشوع . ينجى كل من كان بريئا . ينجيه بطهارة يديه ».

فأجاب أيوب : « شكواى لا تزال مرة ، فثقل يد الله يثير أنينى . ليتنى أعرف أين أجده أو كيف أصل إلى مسكنه ! فأعرض أمامه دعواى وأملأ فمى حججا. وأعرف ماذا يجاوبنى ، وأفهم ما يقوله لى . أبعظمة جبروته يحاكمنى ، أم عليه أن يصغى إلىّ ؟ فيرى أننى خصم مستقيم وأن دعواى هى الرابحة ، أسير شرقا فلا أجد الله ، وغربا فلا أشعر به . أطلبه فى الشمال فلا أراه وأميل إلى الجنوب فلا أبصره . أما هو فيعرف كيف أسلك ، وإذا امتحننى خرجت كالذهب ،

لأن قدمى سارت على خطاه ، ولزمت طريقه فما حادت . وصايا شفتيه ما ابتعدت عنها ، وحفظت فى صدرى كلام فمه ، لكنه يختار . فمن يمنعه ؟ وتشتهى نفسه فيفعل. يتمم ما قضى به علىّ أسوة بالكثيرين سواى . لذلك يشتد فزعى أمامه ، وكلما تأملته تضاعف خوفى . الله هو الذى أوهن قلبى ، والقدير هو الذى يخيفنى. لا الظلام ولا سواده الحالك ، مع أنه يغطى وجهى .

القدير لا تخفى عليه المصائر ، ولا يرى عارفوه يوم جزائه ، الأشرار ينقلون التخوم ويسلبون القطعان ويحفظونها . يستاقون حمار اليتيم ويرتهنون ثور الأرملة . يزيحون الفقراء عن الطريق ، ومنهم يختبئ مساكين الأرض . فيهيمون فى القفر كحمار الوحش ، باحثين عن طعام لأولادهم . يحصدون حقولا لا يملكونها ويقطفون للأشرار كرومهم . يبيتون عراة بلا لباس ، وفى البرد لا كساء لهم . يتبللون من مطر الجبال ، ويحضنون الصخر طلبا للمأوى . يخطفون اليتامى عن الثدى ويرتهنون أطفال المساكين ، فيذهبون عراة لا لباس لهم ويحملون الحزم وهم جائعون . يعصرون الزيت بين حجرين ويدوسون المعاصر وهم عطاش . من المدن يخرج النحيب وتستغيث نفوس الجرحى والله لا يهتم لصلاتهم . هناك من يثور على النور ولا يعرف طرق الرب . وفى سبله لا يستقر . عند الصباح يقوم القاتل ويفتك بالبائس والمسكين ، وفى الليل يكون كاللص . عين الزانى تترقب العتمة ، ليضعها قناعا على وجهه . يسرق البيوت فى الظلام ويغلق على نفسه فى النهار ، لا يريد أن يعرف النور . فالصبح له كظل الموت ، يضئ فيملأه الرعب . الأشرار خفاف على وجه المياه ، ونصيبهم ملعون فى الأرض ، ولا من يتوجه إلى كرومهم. يبتهج بمياه الثلج ، كما يبتهج الموت بالخاطئ . الشرير ينكسر كالشجرة تنساه الرحم ويستطيبه الدود . واسمعه لا يذكر من بعد . يسئ إلى العاقر التى لا تلد ، ولا يحسن إلى الأرملة . الله يمسك المقتدرين بقوته ويظهر ؛ فلا يأمنون على حياتهم . يعطيهم الأمان فيرتاحون إليه ، ولكن عيناه تراقبان طرقهم . يرتفعون قليلا ثم

يزولون. يذبلون ويضمحلون كالحشائش ، ويقطعون كرؤوس السنابل . وإلا فمن منكم يكذبنى ويبرهن على تفاهة كلامى » ؟

فأجاب بلدد الشوحى : « السلطان لله عز وجل ، وهو صانع السلام فى أعاليه . هل من يحصى عدد جنوده[1] ، وعلى من لا يظهر نوره . كيف يتبرر أحد عنده ويكون مولود المرأة طاهراً ؟ القمر نفسه يعوزه النور والكواكب غير صافية فى عينيه . فكيف الإنسان وهو هذه الحشرة ! وأين ابن آدم وهو تلك الدودة » ؟

فأجاب أيوب : « يا لك من معين للضعيف ومخلص للذراع الواهنة ! ويا للمشورة تعطيها للجاهل وللفهم تعرفه به ! لمن توجه كلامك هذا ؟ وأية روح خرجت منك ؟ أرواح الأموات ترتعد تحت الأرض والمياه وسكانها يرتجفون رعبا ، الهاوية مكشوفة أمام الرب والهلاك لا غطاء له . يمد الفضاء على الفراغ ويعلق الأرض على العدم . يحبس المياه فى سحبه فلا يتمزق الغيم تحتها . يحجب وجه القمر كاملا وينشر عليه غمامه . يرسم حداً حول وجه المياه عند ملتقى النور والظلمة . أعمدة السماء تتزعزع وترتعد عجبا من تهديده . بقوته يرجع البحر إلى الوراء وبدهائه يحطم رهب . بنفخة منه أنار السماوات ، ويده شقت الحية الهاربة . إن كان هذا لمحة عن مآثره وصدى همسة نسمعه منه . فمن يدرك رعد جبروته؟»

وعاد أيوب إلى الكلام فقال: «حى الله الذى أنكر حقى ، القدير الذى ملأنى مرارة ! مادام بى نسمة من حياة ونفخة من الله فى أنفى ؛ لن تنطق بالسوء شفتاى ولا يتلفظ لسانى بالمكر. كيف لى أن أبرر كلامكم ؟ وأنا أموت ولا أنكر نزاهتى. أتمسك ببراءتى ولا أرخيها ،وضميرى لا يؤنبنى على شئ .ليت عدوى يعاقب كالأشرار وخصمى يدان كفاعل السوء ، فما رجاء الكافر إذا مات ، إذا استعاد الله روحه منه ؟ أكان الله يستمع إلى صراخه عندما كان ينزل به ضيق ؟ وهل كان يتدلل على القدير فيدعو إليه فى كل حين ؟ أأخبركم بقدرة الله ! أم أكتم ما عنده من

---

(١) ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

جبروت . أنتم جميعا شهدتموه فما بالكم تنطقون بالباطل ؟ حظ الشرير عند الله ونصيب الجائر من القدير إن كثر بنوه فللسيف ، وهم لا يشبعون خبزاً ، فيما الباقون يموتون بالوبإ ، وأراملهم لا يبكين عليهم . إن جمع الفضة مثل التراب وكوّم الملابس كالطين ، فالصّديق هو الذى يلبسها ، وفضته يرثها البرئ . بيته كبيت العنكبوت أو كخيمة نصبها الناطور . ينام يوما وهو غنى ويستفيق ولا شئ عنده . تدركه الأهوال فى عز النهار وفى الليل تجتاحه الزوبعة . تحمله ريح السموم فيذهب ويُقتلع من مكان سكناه . تهوى عليه ولا تشفق ومن يدها يفر هاربا ، فيصفّق عليه بالكفين ، ويُصفر عليه من كل جانب .

إستخرجوا الفضة من المناجم ووجدوا مكانا لتمحيص الذهب . نبشوا الحديد من باطن الأرض ، ومن بين الصخور صفائح النحاس . جعلوا للظلمة حدا وبحثوا فى أبعد الأبعاد عن صخور فى حالك الظلام وعن التى فى ظلال الموت . حفروا حيث لا موطئ قدم مناجم تدلوا فيها متأرجحين بعيداً من مساكن الناس . الأرض التى تنبت القوت لهم قلبوا ما تحتها كما بالنار . فى صخورها مقر الياقوت وعليها غبار الذهب . طريقها لا تعرفه البواشق ولا تبصره عيون النسور . محَال أن تدوسه الضوارى وتسلكه أسود الغاب . مدوا أيديهم إالى الصوّان وقلبوا أسس الجبال . نحتوا قنوات فى الصخور بحثا عن كل ثمين . فحصوا منابر الأنهار ، وأخرجوا الخفايا إلى النور . ولكن هل وجدوا الحكمة ؟ واكتشفوا أين مقر الفهم ؟ طريقها لا يعرفه الإنسان ولا توجد فى أرض الأحياء . الغمر يقول : ما هى فىّ ! والبحر يقول :ولا هى عندى ! لا تُشترى بالذهب الخالص ولا توزن لثمنها الفضة . ذهب أُوفير لا يعادلها ، ولا العقيق أو اللازورد . لا يقاس بها الذهب والزجاج ولا تقايض بمصنوع الذهب النقى . لا المرجان يذكر معها ولا البلّور وأين من تحصيلها تحصيل اللآلئ . لا يعادلها الياقوت الأصفر ، ولا يوازيها الذهب الخالص . فمن أين تجئ الحكمة ؟ وأين مقر الفهم ؟ هى محجوبة عن عيون الأحياء ، ومخفية عن

طيور السماء .الهلاك والموت يقولان : « خبرها بلغ مسامعنا » الله وحده يتبين طريقها ووحده يعرف أين توجد ، لأنه ينظر إلى أقاصى الأرض ويرى كل ما تحت السماء . أعطى للهواء وزنا وعاير المياه بمعيار ، أجرى للمطر أحكاما وطريقا للصواعق القاصفة . فرأى الحكمة وأخبر عنها . وأكدها وسبر غورها وقال : «مخافة الرب هى الحكمة واجتناب الشر هو الفهم »

وعاد أيوب إلى الكلام فقال : « ليت الشهور السالفة تعود ، أيام كان الله حارسى ، يضئ سراجه فوق رأسى فأسلك بنوره فى الظلام . أيام كنت فى عز حياتى ورضا الله على مسكنى ، والقدير بعد ساكن معى وأولادى يحيطون كلهم بى . أغسل باللبن قدمى ، والصخر يفيض أنهار زيت . أخرج إلى باب المدينة وأتخذ فى الساحة مجلسى . يرانى الشبان فيحيدون والشيوخ فينهضون واقفين ، يمسك الأمراء عن الكلام ويجعلون أيديهم على أفواههم ويخفت صوت العظماء وتلصق ألسنتهم بأحناكهم . تسمعنى أذن فتهنئنى وترانى عين فتشهد لى ، لأنى كنت أغيث المسكين وأعين اليتيم الذى لا عون له . تحل علىّ بركة البائسين وتطرب لى قلوب الأرامل . لبست الحق فكان كسائى ، وبقى العدل حلتى وتاجى . كنت عينا بصيرة للأعمى ورجلا صحيحة للأعرج . وكنت وحدى أبا للفقير وسميعا لدعوى الغريب؟ وكنت أهشم أنياب الظالم ومن بين فكيه أنتزع فريسته . فقلت : سأموت فى فراشى وكطير الفينيق أزداد أياما . جذورى ممتدة إلى المياه والندى يبيت على غصونى ، فتبقى كرامتى نضيرة ويتجدد قوسى فى يدى . كانوا يستمعون لى باشتياق ويصغون إلى مشورتى صامتين .على كلامى لا يزيدون شيئا ، وأقوالى عليهم كقطر الندى . ينتظروننى انتظارهم للغيث ، وكما لمطر الربيع يفتحون أفواههم .أبتسم إليهم فلا يصدقون ، ويرقبون فى وجهى علامة رضا . أتولى أمرهم وأتصدر مجالسهم وكملك فى جيش أُحسن قيادتهم .

(١) رج : مزمور ١١١ : ١٠ أمثال ١ : ٧ ، ٩ : ١٠ .

أما الآن فيضحك علىَّ ، من يصغروننى فى الأيام . من أَبَيْت أن أجعل آباءهم فى عداد كلاب غنمى . وماذا كان ينفعنى عمل أيديهم بعد الذى أصابها من عجز ؟ كانوا لشدة الفقر والجوع يقضمون جذور نبات البر وأشواك الخرائب المهجورة يقلعون الخبيزة بين العلّيق ويقتاتون عروق الوزّال . يطردهم أهل الحضر من بينهم ، وعليهم يصيحون كأنهم لصوص . فيلجأون إلى سفوح الأودية ومطاوى التراب والصخور . ينهقون بين جذوع العليق ويقبعون سوية تحت العوسج . أولاد الدناءة هم وبلا اسم طلعوا وانشقوا من الأرض . والآن صرت لهم أهجية ومثلا شائعا للسخرية . يكرهوننى ويبتعدون عنى ولا يتورعون أن يبصقوا فى وجهى . ولأن الله رمانى جانبا وأذلنى؛ أطلقوا شتائمهم فى وجهى . على يمينى يقوم شهود يجعلون رجلى فى الفخ ويصلون علىَّ طريق أدوم ، يقطعون علىَّ سبيل النجاة ، ولا من يصد هجومهم عنى . يدخلون كما من فجوة واسعة ويتدفقون بين الردم . فإذا بالرعب ينقض علىَّ وكرامتى تذهب هباء منثوراً ، فيضمحل كالسحاب خلاصى. والآن روحى تفيض منى وأيام البؤس تطبق علىَّ . فى الليل تنتخر عظامى ويقض الألم مضجعى . بشدة قوته يأخذنى بثيابى ويضيق علىَّ خناقى . طرحنى الله فى الوحل، فمثل التراب أنا والرماد . إليك أصرخ فلا تجيب . وأمامك أقف فلا تنتبه. عدواً قاسيا صرت معى وبقوة يدك حملت علىَّ . ترفعنى عاليا لأركب الريح وفى الموج تقذفنى لأهلك . إلى الموت تقودنى ، أنا أعرف ، إلى دار ميعاد كل حى . ولكن إلى المساكين مددت يدى أغيثهم إذا استغاثوا بى . أما بكيت لمن ضاق يومه وأشفقت نفسى على المعوزين ؟ توقعت الخير فجاء الشر ، وانتظرت النور فحل الظلام . أحشائى تغلى ولا تهدأ ، وأيام البؤس تلاقينى . كئيبا أمضى ولا من يعزى ، وإن قمت بين الناس فلأبكى ، صرت أخا لبنات آوى ورفيقا لطيور النعام . تحول جلدى إلى سواد واحترقت عظامى من الحرارة . كنّارتى غدت للنحيب ومزمارى لصوت البكاء .

قطعت عهدا لعينى أن لا أتأمل فى عذراء . القسمة من الله من فوق والنصيب من القدير تعالى ، إذاً فالبلية قسمة الشّرير والهلاك نصيب الأثيم . وأنا أما نظر الله طرقى وأحصى جميع خطواتى ؟ فهل مشيت يوما مع الكذب أو أسرعت قدمى إلى الغش ؟ ليزنِّى الله فى ميزان العدل فيعرف سبحانه نزاهتى . إن حادت خطاى عن الطريق ، أو مشى قلبى وراء عينى أو تلطخت يداى بعيب ، فليأكل غيرى ما أكون زرعته ، ولتُقتلع فروع أشجارى . إن هام قلبى بامرأة أو نظرت من فتحة باب جارى ، فلتطحن امرأتى الحنطة لآخر ، وليتحن لمضاجعتها غيرى ، لأنى أكون ارتكبت رذيلة ، بل جريمة ترفع إلى القضاء ، وأشعلت ناراً تأكلنى أكلاً وتلتهم جميع غلالى . إن كنت استهنت بحق عبدى أو أمتى فى دعواهما علىّ ، فماذا أفعل حين أواجه الله ؟ وكيف أجيبه حين يسأل ؟ أما صانعى فى البطن صانعه ، وواحد صورنا فى الرحم ؟ هل حرمت الفقير بيته ، أم ترانى أكلت مال الأرملة ؟ أو أكلت لقمتى وحدى ولم يشاركنى فيها اليتيم ؟ أمَا من صباه ربيته كأب، ومن بطن أمه هديته . أرأيتُ هالكا من العرى أو بائسا لا كسوة له ولم يباركنى بكل قلبه حينما تدفأ بصوف غنمى ؟ إن كنت رفعت يدى على اليتيم مع كل نفوذى فى مجلس القضاء فلتسقط كتفى من كاهلى ولتنكسر من مفصلها ذراعى بل كنت أخاف من نقمة الله ، ولا قدرة لى أمام جلاله . هل جعلت على الذهب اعتمادى أو قلت للإبريز: أنت سندى ؟ هل فرحت بوافر ثروتى أو بالكثير الذى جنته يدى ؟ هل نظرت إلى الشمس حين أشرقت أو إلى القمر يسير فى بهاء فافتتنت بهما فى سر قلبى وأرسلت لهما قبلة على يدى . إذاً لارتكبت جريمة نكراء ، لأنى كفرت بالله العلىّ. هل فرحت لهلاك عدوى أو شمت إذا ناله سوء ؟ بل منعت لسانى أن يخطأ فيطلب موت عدوى بلعنة . أما كان أهل بيتى يقولون : « جميع الناس تشبع من طعامى ؟ » هل بات غريب واحد فى العراء وبابى كان مفتوحا على الطريق ؟ هل كتمت مثل الناس مساوئى أو أخفيت فى صدرى خطاياى ؟ هل خفت

من الظهور بين الناس أو خشيت من إهانة العشائر فسكت وما خرجت من بابى ؟ قلت كلَّ شئ، ليت القدير يسمعنى ! ليت خصمى يرد على دعواى ، فأحمل رده على كتفى وأعصبه تاجاً لرأسى . أخبره بعدد خطواتى وأتقدم كالأمير إلى لقائه . إن كانت أرضى احتجت علىّ وتباكت جميع أتلامها لأنى أكلت غلتها بلا مقابل أو تسببت بموت مزارعيها، فلينبت الشوك فيها بدل الحنطة، والزُّوان فى مكان الشعير»

تمت أقوال أيوب

فامتنع هؤلاء الرجال الثلاثة عن مجادلة أيوب لأنه كان فى نظره باراً . فثار غضب أليهو بن برخئيل البوزى من عشيرة رام . ثار غضبه على أيوب لأنه برر نفسه لا الله . وغضب أيضا على أصدقائه الثلاثة ، لأنهم عجزوا عن الجواب ومع ذلك أعلنوا أيوب مذنبا . وكان أليهو ينتظر دوره فى مخاطبة أيوب لأن أصدقاءه كانوا أكبر منه سنا . فلما رأى أليهو أن لا جواب فى أفواه الرجال الثلاثة ، قال غاضبا:

« صغير أنا فى الأيام وأنتم شيوخ ، فاحتشمتُ وخفت من إبداء رأيى وقلت: دع كثرة الأيام تنطق وطول السنين يعلن الحكمة ! والآن علمت أن الروح فى الإنسان ، النسمة[1] التى من القدير ، تمنحه الفهم . فلا الحكمة وقف على المسنين، ولا صواب الحكم وقف على الشيوخ ، إذاً ، فاسمعوا أنتم لى ! لأبدى أنا أيضا رأيى . تأملت كثيراً فى أقوالكم وأصغيت إلى بلاغة حججكم وتبصرت فما رأيت فيكم من خطَّأ أيوب أو فند كلامه . فلا تقولوا نحن بحكمتنا نعرف ، الله يعلمنا لا الإنسان ! لن أتبع أسلوبكم فى الجدال ، ولن أجيب أيوب ما أجبتموه . تحيرتم وعجزتم عن الرد ، وسُلبتم القدرة على النطق ! فانتظرت فما تكلمتم ، وتوقفتم عن الجواب من بعد . والآن دوعنى أجيب بدورى وأبدى أنا أيضا رأيى . فعندى الكثير مما أقوله ، وخواطرى تزدحم فى داخلى . كخمر محقونة فى جوفى تكاد تشقه كزقاق جديد . لا شئ يريحنى غير الكلام ، فسأفتح شفتى وأعطى

(١) دلالة على أن الرح هواد .

جوابى، لن أحابى أحداً من الناس ولن أتملق أى إنسان ! فأنا لا أعرف التملق ، وإلا ففى الحال يأخذنى خالقى .

فاسمع يا أيوب أقوالى ، وأصغ إلى كلامى كله . ها أنا سأفتح فمى ، فينطق لسانى فى حنكى . من قلب مستقيم كلامى ومن شفتين تعرفان الحق . روح الله هو الذى صنعنى ونسمة القدير هى التى أحيتنى . أجبنى إن كنت قادراً وقف دفاعاً عن دعواك أمامى . فأنا مثلك عند الله ، من طين جبلنى أنا أيضا فلا هيبتى يجب أن تخيفك ولا يدى أن تثقل عليك . قلت على مسمع منى وصوت كلامك رن فى أذنى : « أنا برئ بلا معصية ، نقى ولا عيب فى ! هو الله يختلق المبررات ويحسب أنى عدو له . يحبس رجلى فى المقطرة ويراقب جميع خطواتى » فأجيب أنك غير محق : هو الله أعظم من الإنسان . لماذا أنت تخاصمه وتقول : «لا يجيب عن أقوالى » ؟ الله يتكلم مرة ومرتين ، ولكن أين من يلاحظ كلامه؟ فى الحلم يتكلم ورؤيا الليل ، والناس على مضاجعهم نائمون . فيفتح آذان بنى البشر وبمشاهد مرعبة يخيفهم ليصرف الإنسان عن شروره ويضع حداً لكبريائه . فيحفظه من فم الهاوية ويحيد به عن طريق الهلاك . على فراش الألم يؤدبه وبارتجاف عظامه المستمر ، فتعاف نفسه أكل الخبز ولا تشتهى لذيذ الطعام . فيبلى لحمه عن العيان وتبرى عظامه فلا ترى . تدنو نفسه إلى الفساد وحياته من مسكن الأموات . إن وجد الإنسان ملاكا من ألف شفيعا يريه طريق الاستقامة . يرحمه ويقول : أنجيه من الهاوية لأنى وجدت فدية له ، يصير جسده غضا كصباه ويعود إلى أيام شبابه ، يصلى إلى الله فيرضى عنه . يعاين وجهه بهتاف الفرح ويذيع على الناس خبر خلاصه . يعلن لهم ويقول : خطئت وزغت عن الحق وما عوقبت . فدانى من العبور إلى الهاوية ، وحياتى الآن تبصر النور .هذا كله يفعله الله مرتين وثلاثا بالإنسان ، ليعيد نفسه من الهاوية . ينيرها بنور الحياة . فأصغ يا أيوب واستمع لى، وانصت فأنا أتكلم . إن كان عندك كلام فأجبنى ! تكلم فأنا أريد تبريرك .

وإلا فاستمع أنت لى ، وأنصت فأعلمك الحكمة »

وتابع أليهو كلامه فقال : « إسمعوا أقوالى أيها الحكماء ، وأصغوا لى يا أهل المعرفة ! فالأذن تختبر الأقوال كما يذوق الحنك الطعام . فدعونا نبحث عن الحق لنتبين ما هو الأفضل » .قال أيوب : « أنا على الحق ، لكن الله رفض حقى . يكذّبنى والحق فى جانبى ، وجرحى عديم الشفاء ولا ذنب لى » . فمن فى الناس مثل أيوب هذا يشرب الهزء كما يشرب الماء . يمشى فى صحبة أهل السوء ويسلك مع زمرة الأشرار . أما قال : « لا ينفع الإنسان إن كان يحظى برضى الله » . فاسمعوا لى يا أهل الفهم ! ما أبعد الله عن الشر والقدير عن رتكاب الظلم . يجازى الإنسان بأفعاله. ويعامله بحسب سلوكه. فالله حقا لا يفعل الشر ، ولا يعوج طريق العدل ، فمن يا ترى وكّله بالأرض ، أو جعل الكون كله فى عِهدته ؟ لو لم يفكر إلا بنفسه فاستعاد روحه ونسمته إليه ، لفاضت أرواح البشر جميعا وعاد الإنسان إلى التراب . إن كنت فهيما فاسمع هذا وأصغ إلى صوت كلماتى : أتظن من يبغض الحق يسود ؟ وهل تدين الديان العادل ، القائل للملوك: أنتم لئام. وللعظماء : يا لكم من أشرار ؟لا يحابى أحداً لمكانته ولا يفضل غنيا على فقير ، لأنهم جميعا أعمال يديه. يفاجئهم الموت فى نصف الليل،ومهما علا شأنهم يهلكون! وما أسهل ما يزيل الطغاة . لأن عينيه على طرق الإنسان ، فيرى جميع خطواته . لا ظلمة ، ولا ظلال موت يختبئ فيها من يفعل الشر ، لأن الله لا يعين ميعاداً يحاكم فيه الإنسان لدى قضائه ، بل يسحق العظماء من غير بحث ويقيم آخرين مكانهم . فهو عليم بما يفعلون ، ويقلبهم فى ليلة فيداسون. يضرب الأشرار ضربا على الفور بمشهد من جميع الناظرين . لأنهم تراجعوا عن السير وراءه وما تبصروا فى شئ من طرقه ، تقول صراخ الفقراء يصل إليه واستغاثة المساكين بلغت مسامعه ، فيبقى ساكنا ولا شئ يثيره ، ويحجب وجهه فلا من يراه. لكنه يا أيوب يتعهد البشر ، فلا يستبد بهم منافق ويوقعهم فى شرك النوائب ؟ فلو قال أحدهم

لله: « ضللت ولا أعود أخطئ . أرنى أنت ما لا أراه ، فإن كنتُ أسأت فلا أعود. أيعاقبه الله أم يعاقبك ، وأنت ترفض أن تقول قوله ؟ وما دمت أنت تختار لا أنا ، فقل لنا : ما هو رأيك ؟ أهل الفهم يقولون لى ، بل كل حكيم يستمع إلى : «أيوب يتكلم بلا معرفة ، وكلامه تعوزه البصيرة » فليُمتحن أيوب حتى النّهاية ، فكلامه ككلام أهل الشر . يزيد على خطيئته معصية ، فيجعل العدل موضع شك بيننا ويكثر كلامه على الله »

وتابع أليهو كلامه فقال : « أمن العدل يا أيوب أن تقول : « برئ أنا أكثر من الله؟» أو أن تقول لله : « ما شأنك ؟ وماذا يغيرك إن أنا خطئت ؟ » أنا أجيبك وأفند كلامك ، أنت وأصحابك معك : تطلع إلى السماء وانظر تأمل ما أعلى السحاب فوقك . فإن خطئت فماذا تؤثر فيه ، وإن كثرت معاصيك فكيف تؤذيه ؟ إن كنت عادلا فماذا أعطيته ، وأى نفع يأخذه من يدك ؟ إنسان مثلك يؤذيه شرّك ، وابن آدم وحده ينتفع بعدلك . من كثرة الظلم يصرخ الناس ، ومن جبروت الطغاة يستغيثون ، ولا من يقول : « أين الله خالقى ، مانح الأهازيج فى ليالى الفرح ؟ رفعنا على بهائم الأرض علما وجعلنا أحكم من طيور السماء » نعم . يصرخون ولكنه لا يجيب من دناءة تشامخ الأشرار . فلا تقل إن الله لا يسمع وإن القدير لا يرى شيئا ! وإلا زعمت أنه لا يراك وأن دعواك عنده وأنت تنتظر ، وزعمت أن غضبه لا يعاقب ، وبحماقة البشر لا علم له . لذلك يا أيوب تنطق بالباطل وتكثر الكلام عن غير علم »

وتابع أليهو كلامه فقال : « إصبر قليلاً علىَّ فأبين لك ، فلى عن الله أقوال أخرى . حملت معرفتى من مكان بعيد ، وسأبرهن عن عدل خالقى . فكلامى حقا لا كذب فيه ، كما تعلم أنت علم اليقين . عظيم هو الله فى قدرته ، لكنه لا يمقت البرىء ، لا يترك الأشرار يعيشون ، ويحرم المساكين حقهم . لا يصرف عن الأبرار عينه ، ويقيم الملوك على عروشهم . فإن فاخروا بدوام سلطانهم أوثقهم

بالقيود عقابا لهم ، وأوقعهم فى حبائل الشقاء وأراهم أعمالهم كلها ومعاصيهم لأنهم تكبروا ، وتمتم فى آذانهم منذراً ، وحثهم أن يرجعوا عن الشر . فإن سمعوا له وأطاعوا ؛ قضوا أيامهم فى هناء ، وسنىّ حياتهم فى نعيم ، وإلا هلكوا بحد السيف وماتوا على حين غفلة . أما الكافرون والحقد فى قلوبهم لا يستغيثون وهم فى القيود فتموت نفوسهم فى الصبا ، ويقضون حياتهم مخنثين . وأما البائس فينقذه بؤسه ويفتح فى الضيق له أذنيه . وأنت من العذاب ينتشلك إلى بحبوحة لا حدّ لها ويملأ بالطعام الدسم مائدتك ، فتملى على الأشرار أحكامك ومن عدل قضائك لا يفلتون . لا الضلال يقودك ولا الغنى ولا الرشاوة بكثرتها تفسدك . تقاضى الغنى لا الفقير وحده والقوى المسلح أسوة بالضعيف ، لا تدوس الذين لا تعرفهم لترفع ذويك إلى مواضعهم ، فحاذر أن تلتفت إلى الشر فأنت لهذا ابتليت بالبؤس . هو الله يتعالى بقدرته ، فمن يماثله من الفهماء ؟ من أملى على الله طريقه أو قال له : « فعلت شراً ؟ » فتذكر أن تعظم عمله ، وهو الذى يتغنى به البشر . تبصره عين كل إنسان وتحدق إليه من بعيد . عظيم هو الله فوق إدراكنا ، وسنينه كثيرة لا تحصى . هو الذى يجرع قطرات الماء ، فتهطل مطراً فى الضباب . تفيضه الغيوم وتصبه سيولا على الناس أجمعين . فهل من يفهم انتشار الغيوم ودوى الرعد فى قبة السماء ؟ ينشر النور ويتسربل به ، ويملأ أعماق البحار . بذلك ينصف شعوب الأرض ويرزقهم طعاما وفيراً . يرفع البرق على راحتيه ويأمره بإصابة الهدف. ورعده ينذر بمجيئه ، مثلما يسبق الغضب الشر .

لذلك يخفق قلبى ويكاد يقفز من موضعه . فاسمعوا هزيم صوت الله والزئير الخارج من فمه . تحت جميع السماوات يطلق برقه فيصل إلى أطراف الأرض . تتبعه زمجرة صوته ، وهزيم رعد جلاله ، ولا يكبح جماح بروقه ما دام يسمع صوته ، الله حقا يعمل العجائب ، وعظائمه فوق إدراكنا . يقول للثلج : اسقط على الأرض ، وللمطر الغزير : اهطل بقوة ! يختم على يد كل إنسان ليعرف جميع

البشر خالقهم، فيرجع الوحش إلى عرينه ويبقى هناك فى مأواه ، وتهب الأعاصير من الجنوب والبرد من رياح الشمال . بنسمة الله يحدث الصقيع وتتجمد سطوح المياه . يثقل الغيوم بالندى وينير السحاب ببرقه ، فيدور متقلبا كما يديره ويأمره فى جميع المسكونة . يرسله عقاباً لأهل الأرض ، أو وفق ما شاء من رحمته . فأصغ إلى هذا يا أيوب ! قف وتأمل عجائب الله . أتعرف كيف يسيرها الله ، وكيف يلمع ببرق غمامه ؟ أتعرف كيف ينتشر السحاب ، وهذا من معجزات العالم العليم؟ وحين تكون ثيابك دافئة ، والأرض فى سكون من رياح الجنوب ، أتعينه أنت على نشر السحاب صلبا كمرآة معدن مسكوب ؟ أخبرنى ماذا نقول لله ، أم إن الظلام يمنعنا عن الكلام ؟ بل هل لكلامى قيمة عنده ؟ وهل مطلب الإنسان يبلغ مسامعه ؟ والآن لا يرى النور فى الغيوم ولا الريح عبرت لتقشعها ، ولا من الشمال جاء شعاع ذهبى يريك الله بجلال مهيب . فالقدير فوق متناول فهمنا ، عظيم القدرة والرأى السديد، والكثير العدل الذى لا يجور . فلا عجب أن يهابه البشر ، وأن لا يراعى كل من يدعى الحكمة » .

فقال الرب لأيوب من العاصفة : « من هذا الذى يغلّف مشورتى بأقوال تخلو من كل معرفة ؟ شُدّ حَيلَك وكن رجلا ! لأسالك فأخبرنى . أين كنت حين أسستُ الأرض ؟ أخبر إن كان عندك فهم . من أقر حجمها إن كنت تعلم ، أم من مد عليها الخيط فقاسها ؟ على أى شئ رست قواعدها ، ومن الذى أرسى حجر زاويتها حين كانت كواكب الصبح تغنى وجميع بنى الله يهتفون ؟ من حجز البحر بأبواب حين تدفق من رحم الأرض . حين جعلت الغمام لباساً له والغيوم الكثيفة السود قماطاً ، حين رسمتُ له حداً لا يتعداه ، وجعلت له مغاليق وأبوابا وقلت : إلى هذا تصل حدودك ، وهنا يقف طغيان أمواجك . هل أنت فى أيامك أمرت الصبح وأرسلت الفجر إلى موضعه ، ليمسك بأطراف الأرض كلها حتى يسقط ندى السماء عنها فتتحول كطين أحمر ، وتصطبغ بمثل صبغ الرداء ، فيُمنع عن الأشرار

نورهم وتنكسر الذراع المرتفعة . هل وصلت إلى ينابيع البحر أم تمشيت فى أعماق الهاوية ؟ هل انفتحت لك أبواب الموت أم عاينت أبواب ظل الموت ؟ هل أدركت مدى سعة الأرض ؟ أخبر إن كنت تعرف هذا كله . أين الطريق إلى مقر النور ، وأين هو محل الظلمة ؟ لتقودهما إلى حدودهما وتعرفهما طرق مسكنيهما . لو علمت لكنت مولوداً معهما ، ولكان عدد أيامك كثيراً . هل اخترقت إلى خزائن الثلج أم أبصرت أين خزائن البرد ؟ تلك التى أبقيتها للملمات ، ليوم الحرب واشتداد القتال . بأى طريق يتوزع البرق وتهب ريح المشرق على الأرض ؟ مَن شق المجارى لسقوط الأمطار وطريقاً للصواعق القاصفة ليمطر أرضا لا إنسان فيها وقفاراً لا يعيش فيها بشر ، وليروى الأماكن القاحلة وينبت العشب فى القفار ؟ هل للمطر من أب ؟ ومن ولد قطرات الندى ؟ من أى بطن خرج الجليد ، ومن ولد صقيع السماء ؟ تتجمد المياه كالحجر ويتماسك وجه الغمر . أتربط أنت عقد الثريا ، أم تحل حبال الجوزاء ؟ أتُطلع نجوم الصبح فى أوقاتها ، وتهدى النَّعش وبناته فى السماء ؟ أتعرف أنت أحكام السماوات ، أم ثبتّ سلطانها على الأرض ؟ أترفع إلى السحاب صوتك فيسكب عليك ماء يغمرك ؟ أترسل البروق فتنطلق وتقول لك : سمعا وطاعة ؟ من وضع الحكمة فى طير الحجل ، وأعطى الديك موهبة الفهم ؟ من يحصى الغيوم بحكمته ؟ ومن يصب أوعية السماوات ؟ فيصير التراب كتلة جامدة ، ويتماسك الطين بعضه ببعض ؟ أتصطاد اللبوءة فريستها وتُشبع جوع أشبالها حين تقبع فى عرائنها ، أو حين تكمن بين أدغالها ؟ من يرزق الغراب صيده، حين تنعب فراخه إلى الله وتهيم شاردة وراء القوت ؟

أتعرف متى تلد وعول الصخور ، وهل راقبت مخاض الأيائل ؟ هل حسبت أشهر حملهن وعلمت أوان ولادتهن ؟ يبرُكن فيضعن أولادهن ويُلقين ما حبلن به فى العراء . تكبر أولادهن وتربى فى البر . وحين تخرج لا تعود إليهن . من أطلق سراح حمار الوحش وفك الرسن عن رقبته العاتية ؟ جعلتُ البرية مسكنه وسهول

الملح مأوى له . على ضجيج المدينة يضحك ولا يسمع صوت المكارى . يرتاد مرعاه فى الجبال ويبحث عن كل نبات أخضر . أيرضى الثور الوحشى أن يخدمك، أو أن يبيت بجانب معلفك ؟ إن ربطته بنير فى رقبته ، أيشق الأتلام وراءك ؟ أتتكل على قوته العظيمة ، فتفوض إليه قضاء أعمالك ؟ أتأتمنه أن يعود بزرعك ويجمعه جمعاً على بيدرك ؟ أجناح النعامة المرفوف مثل جناح اللُّقلُق أو الصقر ؟ لك تترك بيضها على الأرض فيحضنه التراب وحده ، تنسى أن القدم تطأه ، وأن وحش البر يدوسه . تقسو كأنهم غير أولادها ، وإن ضاع تعبها فلا تأسف . فالله نزع منها الحكمة وحرمها نصيبها من الفهم . فلو كانت تُحلّق فى العلاء لضحكت على الخيل وفرسانها . وأنت أتعطى الفرس قوته وتكسو رقبته شعراً مرسلاً ؟ تجعله يقفز مثل الجراد ويصهل مثل صهيله الهائل ، ويشق الوادى بحافره ويهجم شوقاً للقاء السلاح. يهزأ بالخوف لا يخشى شيئا ولا ينهزم من أمام السيوف . عليه السلاح يصل صليلاً : سهام وأسنة ونبال ، من فرط حماسته ينهب الأرض ، ولا يصبر إلى أن يهتف البوق . إذا هتف البوق صاح : ها ! ومن بعيد يشم ريح القتال وصياح القواد وصوت الحرب . أبمشورتك يطير الصقر عاليا وينشر جناحيه نحو الجنوب ؟ أم بأمرك يحلق النَّسر فى الجو ويبنى وكراً له فى الأعالى ؟ ويسكن الصخر وفيه مبيته ، وعلى سنان الصخر معقله ؟ من هناك يبحث عن فريسته وعيناه تنظران إلى بعيد . فراخه تعب الدماء طعاما ، وحيث الضحايا فهناك يكون »

فأجاب الرب أيوب وقال : « هل يخاصم القدير لائمه ويجيب الله من يشتكيه ؟» فأجاب أيوب الله ، وقال : إن كنت سخيفا فماذا أجيبك ؟ يدى أضعها على فمى . تكلمت مرة فلا أعود ، ومرتين فلا أزيد » فأجاب الرب أيوب من العاصفة ، وقال : « شد حيلك وكن رجلا! أريد أن أسألك فأخبرنى . أحقا تريد أن تنقض حكمى وأن تديننى لتبرر نفسك ؟ أمثل ذراع الله ذراعك ، وبمثل صوت الله ترعد ؟ الآن تزين بالجلال والعز وتسربل بالمجد والبهاء . صب فيض غضبك

وانظر وإلى كل مترفع واخفضه . أنظر إلى كل متكبر وأذله وأسحق الأشرار حيث هم . أطمرهم في التراب كلهم ، واجمعهم لفنائهم فى حفرة . فأكون أول من يمدحك ، لأن يمينك تقدر أن تخلصك . وحيد القرن الذى صنعته معك يأكل الأعشاب مثل البقر . قوته عظيمة فى متنيه ، وعزمه فى عضلات بطنه ! لذيله صلابة الأرزة ، ولفخذيه أعصاب محبوكة . عظامه أنابيب من نحاس ، ومفاصله حديد فولاذ . هو أول أعمال الله ، وصانعه سلط عليه السيف . حرمه ارتياد مراتع الجبال ، حيث تلهو جميع وحوش البر ، فتحت عرائس النيل يضطجع ، وفى مستنقع القصب يختبئ . تظلله أوراق عرائس النيل ، ويحيطه صفصاف الوادى. إن طغى عليه النهر لا يحفل ، أو اندفق فى فمه السيل لا يبالى .لكنه يصطاد وعيناه مفتوحتان ويُثقب أنفه بشوكة . والتمساح أتصطاده بشص ، أم تربط لسانه بحبل ؟ أتجعل فى أنفه حلقة ، أم تثقب فكه بصنارة ؟ أيكثر من التضرعات إليك، أم يتكلم معك باستعطاف ؟ أيقطع عهداً معك ليكون عبداً مؤبداً لك ؟ أتلاعبه كأنه عصفور وتأسره لعبة لجواريك ؟ أيحفر له الصيادون حفرة ويبيعونه حُصصا للتجار ؟ أتطعن بالحراب جلده وبكلاليب الصيد رأسه ؟ ضع يدك عليه ولو مرة واذكر عراكك معه فلا تعود !

لكم خيب آمال صياديه ، فمجرد منظره يصرعهم . تثيره فيزداد شراسة ، ولا يقف فى وجهه أحد . من الذى هاجمه ونجا ؟ لا أحد تحت السماوات . هل أسكتُ عن وصف أعضائه وذكر قوته التى لا تضاهَى ! من يكشف وجه لباسه ويخترق صفىّ دروعه ؟ من يفتح مصراعى فمه ، فالرعب فى محيط أسنانه ؟ ظهره تروس مصفحةمختومة كأنما بصخر . يتلاصق بعضها ببعض فلا يدخل فيها الريح . متلاحمة إحداهما بالأخرى، متماسكة لا يمكن أن تنفصل . عطاسه يقدح النور ، وعيناه كأجفان الفجر . من فمه تخرج ألسنة النار ومنه يتطاير الشرر . يتصاعد من منخريه الدخان كقدر تغلى على النار . لُهاثه يُشعل الجمر ، ومن فمه يخرج اللهب

فى عنقه تبيت القوة ، وأمامه يقفز الرعب . مطاوى لحمه متلاصقة ، مسبوكة عليه لا تتزحزح . قلبه صلب كالحجر ، ثابت كالرحى السقلى . يقف فترتعب اللجج وتتراجع أمواج البحر . يصيبه السيف فلا يطعنه ، ولا الرمح ولا الحربة ولا السهم. الحديد عنده كالتبن ، والنحاس كالخشب المنخور . السهم لا يجعله يركض، وحجارة المقلاع عنده كالقش . النبلة يحسبها قصبة ويضحك على اهتزاز الرمح . من تحته خزف محدد ، وكنورج يسحقه الطين . يُغلى اللجة كالقِدر ويحرق البحر كالمبخرة . ينير الطريق وراءه ، فإذا الغمر شعر أشيب . لا مثيل له فى الأرض ، مطبوع على عدم الخوف . يحملق فى أرفع مخلوق ، وهو سيد الوحوش كلها »

فأجاب أيوب الرب وقال : « عرفتك قادراً على كل شئ فلا يتعذر عليك أمر. أخفيتَ مشورتك ولم تبح بها . فتكلمتُ بكلام باطل على معجزات لا أُدرك مغزاها وعجائب فوق متناول فهمى . إسمع ، فلى بعد ما أقوله ، وما أسألك عنه فأخبرنى . سمعتُ عنك سمع الأذن ، والآن رأتك عينى . **لذلك أسترد كلامى وأندم وأنا هكذا فى التراب والرماد »**

الخـــــاتمة :

وبعد أن كلم الرب أيوب بهذا الكلام ، التفت إلى أليفاز التيمانى وقال : «أنا غاضب عليك وعلى صاحبيك لأنكم ما تكلمتم أمامى بالصدق كعبدى أيوب . والآن خذوا لكم سبعة ثيران وسبعة كباش وعودوا إلى عبدى أيوب وقدموا ذبيحة تكفر عنكم ، وعبدى أيوب يصلّى من اجلكم . وسأستجيب له ؛ فلا أعاملكم بحماقتكم التى جعلتكم لا تتكلمون أمامى بالصدق كعبدى أيوب »

فذهب أليفاز التيمانى وبلدد الشوحى وصوفر النّعماتى وفعلوا كما قال الرب لهم . فاستجاب الرب لأيوب .

ورد الرب أيوب إلى ما كان عليه من جاه حين صلّى لأجل أصحابه . وزاد الله أيوب ضُعف ما كان له قبل . وزاره جميع إخوته وأخواته وكل من كان يعرفه من قبل . فأكلوا معه خبزاً فى بيته ورثوا لحاله وعزّوه عن كل البلايا التى أنزلها الرب به . وأهدي له كل واحد منهم قطعة من الفضة وخاتما من ذهب .

وبارك الرب أيوب فى آخر أيامه أكثر من أولها ، فكان له من الغنم أربعة عشر ألفا ومن الجمال ستة آلاف ، ومن البقر ألف فدان ، ومن الحمير ألف أتان. وكان له سبعة بنين وثلاث بنات . وسمى الأولى يميمة . والثانية قصيعة ، والثالثة قرن هفُّوك . وما كان فى الأرض كلها نساء جميلات كبنات أيوب . وأعطاهن أبوهن ميراثا بين إخوتهن .

وعاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين سنة ، فرأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال. ومات أيوب شيخا شبع من الأيام .

[تم سفر أيوب]

***

قصة أيوب
فى
مخطوطات قمران

وفى مخطوطات البحر الميت وجزيرة قمران . كتاب لأيوب عليه السلام هذا هو نصه :

وصية أيوب

فاتحـــة

كتاب كلام أيوب المسمى يوباب . لقد مرض فنظم أموره،وفى ذلك اليوم استدعى أبناءه السبعة وبناته الثلاث . الذين أسماؤهم : ترسى وكوروس وحيون ونيقه وفوروس وفيفه وفروون وحمرا وكاسيا وقرن أمالثيا فدعى أبناءه وقال لهم :

تعالوا حولى يا أبنائى . تعالوا حولى ، ولأعلمكم بما صنع الله معى وكل ما حصل لى . أنا أبوكم أيوب الذى كان عليه أن يحتمل كل شئ ؛ أما أنتم فإن لكم قرابة مختارة وثمينة ، ناشئة عن سلالة يعقوب ، والد أمكم ؛ أما أنا فأنتسب لأبناء عيسو ، أخو يعقوب ، الذى منه دينا أمكم ، والتى منها أنجبتكم . وفى الواقع ، فقد ماتت زوجى الأولى مع أولادى العشرة الآخرين موتاً شنيعاً . فاسمعوا إذاً يا أبنائى وسأعلمكم بما حصل لى .

الشكوك الداخلية لأيوب

كنت أدعى يوباب ، قبل أن يعطينى الرب اسم أيوب . ولما كنت أدعى يوباب كنت أسكن قرب هيكل صنم كان موضوع عبادة . ولما كنت أرى باستمرار المحرقات التى كانت تقدم له قلت فى نفسى : هل هذا هو حقاً الإله الذى صنع السماء والأرض والبحر ونحن أنفسنا ؟ فكيف يمكننى معرفة ذلك ؟

ظهور ملاك

وبينما كنت أنام خلال الليل جاءنى صوت عظيم ، وفى نور أعظم أيضاً وقال «يوباب ، يوباب!» . فأجبت : «هأنذا !» فتابع : «انهض وسأبين لك من هو الذى تريد معرفته . الذى تقدم له المحرقات والسكيب ليس الله ، بل هو قدرة الشيطان التى بها يتم إغواء الطبيعة البشرية» . وعند سماع هذه الكلمات سقطت عند حافة السرير وسجدت وقلت : «يا ربى، أنت الذى أتيت من أجل سلام نفسى . أرجوك، إذا كان هذا المعبد هو معبد ساتان (الشيطان) الذى به سيُغوى البشر ، فأعطنى القدرة وتطهير هذا المعبد . فأعمل بحيث لا يتلقى سكيب الخمر من بعد . فمن ذا يمنعنى طالما كنت أحكم على هذا البلد ؟»

فأجابنى النور : «سيمكنك تطهير هذا المعبد ، لكننى سوف أعلمك بكل ما أمرنى الرب أن أوصله لك » فأجبت : «كال ما أمرنى به أنا عبده ؛ سأسمعه وأعمل به » . فتابع :«هكذا يقول الرب : إذا قمت بتطهير معبد ساتان ، فإنه سيقوم ضدك ليقاتلك غاضباً ؛ ومع ذلك فهو لن يستطيع أن يضربك ضربة مميتة ، لكنه سينزل بك ضربات كثيرة ؛ سينتزع منك خيراتك ، ويخطف منك أبناءك ؛ لكنك إذا قاومت سأجعل اسمك مشهوراً بين أجيال الأرض كلها ، حتى نهاية العالم. وسأعيد لك من جديد خيراتك والرب سيضاعفها لك ، حتى تعلم أنه منصف وأنه يعطى الخيرات لكل من يظهر الطاعة . وستوقظ للبعث . وستكون فى الواقع مثل مصارع يكيل ويتلقى الضربات ويحصل على التاج . عندها ستعلم أن الرب عادل وصادق وقوى ، هو الذى يحصّن مختاريه .

وأجبته أنا يا أبنائى : «سأقاوم حتى الموت ؛ ولن أتراجع»

أيوب يدمر هيكل الصنم

وتركنى الملاك بعد أن ختمنى بخاتمه . عندها يا أبنائى ، وفى الليلة التالية ،

ذهبت بعد أن أخذت معى خمسين خادماً إلى هيكل الوثن وقلبته رأساً على عقب ؛ ٣ وانسحبت عندها إلى بيتى بعد أن أمرت بإغلاق الأبواب بإحكام .

ساتان يزور أيوب

١ اسمعونى يا أبنائى ، واندهشوا ! . فما أن عدت إلى بيتى ، وبعد أن أمرت بإغلاق الأبواب ، أعطيت أوامرى للبوابين : «إذا طلبنى اليوم أحد ، فلا تعلمونى بشئ ، بل قولوا له بالأحرى : إنه مشغول لأنه فى البيت من أجل أمر هام» . ولما كنت فى البيت أتى ساتان متنكراً بزى شحاذ ليدق على الباب . وقال للبوابة : « أعلمى يعقوب أننى أريد مكالمته . فجاءت البوابة تخبرنى بذلك . وعلمت منى أن عليها إفهامه أننى كنت مشغولاً فى هذا الوقت .

وعندما سمعها ساتان ذهب ووضع على كتفيه عصاً وجاء ليتحادث مع البوابة : « قولى ليعقوب : أعطنى خبزا من يديك لكى أستطيع الأكل !» فأعطيت عندها للخادمة خبزاً محروقاً لتعطيه له وقلت لها أن تقول: . «لا تنتظر أن تأكل من بعد من خبزى لأنك غريب بالنسبة لى » وكانت البوابة خجلة من أن تعطيه هذا الخبز المحروق بلون الرماد ؛ وبما أنها لم تكن قد عرفت أنه ساتان ، أخذت واحداً من خبزها الطيب وأعطته له . فأخذه ، وبما أنه عرف ما حصل ، قال للعبدة :«اذهبى أيتها الخادمة السيئة واجلبى لى الخبز الذى أعطى لك من أجلى » . فبكت الخادمة بدموع حارة وقالت :«قلت حسناً بأننى خادمة سيئة . فلو لم أكن كذلك كنت عملت كما أمرنى سيدى » وعادت لتجلب له الخبز المحروق وقالت له : «هكذا يقول سيدى : لن تأكل من بعد من خبزى ، لأننى غريب بالنسبة لك . ولهذا بالضبط إنما أعطيتك إياه ، حتى لا ألام لأننى لم أعط شيئاً لعدو كان يتسول» وعندما سمع ساتان ذلك أعاد لى الخادمة لتقول لى : « كما أن هذا الخبز متفحم هكذا سأصنع بجسمك . لن أغيب سوى ساعة وسأعود لأدمرك » فأجبته : «اصنع ما لديك لتصنعه . لأنك مهما جلبت على فأنا مستعد لتحمل ما ستوقعه بى »

ساتان يتلقى سلطة تدمير أيوب

وعندما تركنى ، مضى إلى تحت القبة السماوية . يتوسل إلى الرب أن يعطيه السلطة على خيراتى . وإذ تلقى هذه السلطة من الله جاء لينتزع منى ثروتى كلها .

غنى وإحسان يعقوب

١ فاسمعوا إذاً لأننى سوف أطلعكم على كل ما جرى لى وما انتزع منى . لقد كان لدى فى الواقع مائة وثلاثين ألف نعجة . وكنت أكرس سبعة آلاف جزة من بينها لإكساء اليتامى والأرامل والمعوزين وذوى العاهات . وكان لدى رهط من ثمانمائة كلب كانوا يحرسون قطعانى ؛ وكان لدى أيضاً مائتى كلب أخر كانو يحرسون بيتى . وكان لدى تسعة آلاف بعير، وقد تركت ثلاثة آلاف منها جانباً لأجعلها تعمل فى كل مدينة " وقد أرسلتها بعد أن حملتها بالخيرات إلى المدن والقرى ، آمراً بتوزيعها على ذوى العاهات والمحتاجين وعلى جميع الأرامل . وكان لدى مائة وأربعون ألف أتان فى الرعى ، وقد تركت جانباً منها خمسمائة وأمرت ببيع صغارها لصالح المعوزين والمتسولين . وكان المعوزون يأتون لمقابلتى من كافة المناطق ، وكانت أبواب بيتى الأربعة مفتوحة . وكنت قد أعطيت الأمر لخدمى بتركها مفتوحة للغرض التالى : بفرض أن بعضهم جاء يطلب الحسنة ورأونى أجلس قرب الباب فخجلوا ومضوا دون أن ينالوا شيئاً ، فإذا رأونى جالساً عند أحد الأبواب سيمكنهم العودة عن طريق باب آخر وأخذوا ما يحتاجون إليه .

وكان لدى أيضاً ثلاثون طاولة فى بيتى ، ممدودة فى كل ساعة للغرباء وحدهم . وكان لدى أيضاً اثنتا عشرة طاولة للأرامل . وإذا أتى أحد الغرباء لطلب الحسنة فكان يجب أن يُخدم على المائدة أولاً قبل أن يتلقى حصته . ولم أكن أسمح لأحد أن يخرج من عندى فارغ اليدين . وكان لدى ثلاثة آلاف وخمسمائة زوج من الثيران ؛ وقد وضعت جانباً خمسمائة زوج منها وخصصتها للحراثة التى يمكنها القيام بها فى الحقول كلها التابعة للذين يستأجرونها ؛ وعائد عملها كنت أضعه جانباً

لمائدة المعوزين . وكان لدى خمسون مخبزاً ؛ وقد جعلت عدداً منها فى خدمة طاولة الفقراء.

وكان هناك أيضاً غرباء يرغبون إذ يرون حماسى أن يقوموا هم أيضاً بهذه الخدمة . وكان آخرون أيضاً من المحتاجين ولا يستطيعون البذل يأتون إلى ويطلبون هذا الطلب : « إننا نرجوك ، ألا نستطيع نحن أيضاً القيام بهذه الخدمة ؟ لكننا لا نملك شيئاً ! فأشفق علينا وأعرنا فنمضى ونقوم بأعمال فى المدن الكبيرة ونستطيع أن نساهم فى خدمة المعوزين . وبعد ذلك سنعيد لك ما هو لك » . وكنت إذا سمعت ذلك أغتبط بأن يتلقوا منى كل شئ فى سبيل عيش الفقراء . وكنت أقبل بطيب خاطر مستنداتهم وأعطيهم كل ما يطلبون ، دون أن آخذ منهم أى ضمان سوى إيصال . وهكذا كانوا يقومون بالأعمال بمالى . وفى بعض الأحيان كانوا يقومون بأعمال جيدة ويقدمون هبات للفقراء . ولكنهم فى بعض الأحيان كانوا على العكس يُجردون ويأتون إلى متوسلين : « إننا نرجوك كن صبوراً علينا ! وقل لنا كيف يمكننا أن نرد لك حقك !» عندها كنت أجلب لهم فوراً اعترافهم بالدين ؛ وكنت أقرؤه ، وبعد أن أعفيه كنت أقول لهم : «لن آخذ شيئاً منكم مما كنت قد عهدت به إليكم لصالح المعوزين » ولم أكن آخذ شيئاً من مدينى .

وإذا جاءنى رجل بقلب فرح وقال لى : « ليس لدى الوسيلة لنجدة المعوزين؛ ومع ذلك أريد خدمة الفقراء اليوم على مائدتك» ، فعندما كنت أمنحه ذلك كان يقوم بالخدمة ويأكل وعندما يأتى المساء كنت أجبره حين يمضى إلى بيته أن يأخذ أجره قائلاً له : « أعرف أنك عامل ، ورجل ينتظر ويرجو أجره وعليك أن تأخذه » ولم أكن أسمح بأن يبقى أجر الأجير عندى فى بيتى .

وكان ينقصنا عدد العاملين من أجل حلب البقر ، فكان الحليب ينتشر على التلال . وكانت الزبدة تذوب فى طرقاتى والقطعان كانت كثيرة إلى حد أنها كانت ترقد فى الصخور والتلال لكى تضع وتنتج . ولهذا كانت الجبال تسيل لبناً إلى حد

أن يصبح مثل الزبدة . وكان خدمى الذين يحضرون الطعام للأرامل يسأمون ٥ فيهملون المعوزين ويحتقروننى قائلين : « من سيعطينا من هذه اللحوم لكى نشبع ؟» على الرغم من أننى كنت طيباً جداً معهم .

وكان لدى ست قيثارات وكنارة بعشرة أوتار . وكنت أنهض كل يوم بعد وجبة الأرامل وآخذ الكنارة وأعزف لهن وكن يغنين . وكنت أجعلهن يتذكرن بأداتى الله كى أجعلهن يمجدن الرب . وإذا كانت خادماتى يثرثرن أحياناً ، فكنت آخذ الأداة وأغنى معوضاً عليهن ، فأوقف ثرثرتهن المحتقرة.

وكان أبنائى بعد أن يقوموا بهذه الخدمة ، يأخذون كل يوم طعامهم . ويذهبون إلى أخيهم البكر ليأكلوا معه . وكانوا يأخذون معهم أيضاً أخواتهن الثلاث ويتركون الأعمال للخادمات . ولما كان أبنائى يعاملون الخدم الذين كانوا فى خدمتهم بشكل سئ ، كنت أنهض من الصباح الباكر وأقدم لهم الأضاحى بحسب عددهم : ثلاثمائة حمامة وخمسون جدياً واثنتا عشرة نعجة. وبعد هذا كله كنت آمر بعد الذبيحة بتحضيرها للفقراء وكنت أقول لهم : « خذوا بقية الذبيحة وصلوا لأبنائى ، وفى حال ارتكاب أبنائى الخطيئة أمام الرب قائلين وهم يمتلئون تبجحاً واحتقاراً : نحن أبناء هذا الرجل الغنى، وهذه الخيرات لنا . فلماذا نقوم بالخدمة ؟ » لأن العجرفة رجس أمام الله . وكنت أختار أيضاً عجلاً وأقدمه على مذبح الرب ، خشية من أن يكون أبنائى قد فكروا أفكاراً سيئة فى قلوبهم ضد الله.

خراب أيوب

١ وقد عملت هكذا طيلة السنوات السبع التى تلت الكشف الذى كشفه لى الملاك . ثم وبعد أن تلقى ساتان السلطة بأن يهاجمنى ، نزل عندها بلا رحمة. واستهلك بالنار السبعة آلاف نعجة المخصصة لإكساء الأرامل، والثلاثة آلاف بعير ، والخمسمائة أتان والخمسمائة زوج من الثيران . وقد دمر ذلك كله بنفسه ، بحسب المقدرة التى كان قد تلقاها ضدى . وأخذ بقية ماشيتى مواطنى . الذين كنت قد

عملت الخير معهم ؛ فهؤلاء وقفوا ضدى الآن وسلبونى بقية بهائمى . وأعلنوا لى خسارة خيراتى ؛ لكننى كنت أمجد الله ولا أشتم .

عندها دبر الشيطان الذى كان يعرف قلبى دسيسة ضدى . فتنكر بزى ملك الفرس ووقف فى مدينتى وجمع كافة المتشردين . وكلمهم بلهجة مهددة : «ها أن يوباب قد فقد كافة ثروات البلد ولم يترك شيئاً ، وهو الذى وزع على المعوزين والعميان والعرجان ، والذى دمر هيكل الإله الكبير والذى محا معبد إراقة الخمر ، ولهذا فإننى سوف أرد عليه أنا بحسب ما كان قد صنع تجاه بيت الإله . فاذهبوا إذاً واستولوا على كافة حيواناته وعلى كل ما يملك على الأرض !» فأجابوه : « له سبعة أبناء وثلاث بنات . فشرط ألا يهربوا إلى بلاد أخرى ولا يتهموننا بأننا طغاة ، وشرط أيضاً بألا ينتهى بهم الأمر فيثورون ويقتلوننا !» . فقال لهم : « لا تخشوا شيئاً ! فالجزء الأعظم من قطعانه قد دمرته بالنار ، أما بالنسبة للبقية فقد أخذته وسأهلك أيضاً أبناءه»

وإثر ذلك مضى وجعل البيت ينهار على أبنائى وقتلهم . ولما رأى مواطنى أن ما قاله حصل فعلاً أتوا لطردى وأخذ كل ما كان لدى . ورأيت بعينى على موائدى وعلى أسرتى أناساً محتقرين وسوقيين . ولم أكن أستطيع قول كلمة ، لأننى كنت قد استنفذت مثل امرأة واضعة تمسك خاصرتيها من شدة ألمها ، متذكراً بخاصة القتال الذى كان الرب قد أعلنه لى بواسطة ملاكه والثناء الذى كان قد وُجّه لى . فصرت مثل الذى يريد دخول مدينة ليرى غناها ويرث جزءاً من مجدها ، ومثل الذى وضع حملاً فى نركب فى عرض البحر وإذا صادف وسط المياه أمواجاً عاتية ورياحاً معاكسة رمى الحمل فى الماء قائلاً : « أريد فعلاً أن أفقد كل شئ شرط أن أدخل هذه المدينة وأورث ما هو أفضل لهذا التجهيز ولهذا المركب » وهكذا فقد نظرت إلى ما كان يخصنى على أنه غير ذى قيمة بالمقارنة مع هذه المدينة التى كان قد حدثنى عنها الملاك .

وعندما جاء الرسول الأخير وأخبرنى بفقدان أبنائى ، اضطربت اضطرابا عظيماً . فمزقت ثيابى وقلت للذى حمل إلى هذا الخبر : « فكيف نجوت إذاً ؟ » وعندما علمت بما كان قد جرى ؛ صرخت : « الرب أعطى والرب أخذ ، وكما رضى الرب فهكذا حصل ، ليبارك اسم الرب ! »

وعندما دُمرت خيراتى كلها ؛ فهم ساتان أن لا شئ يمكنه أن يقودنى إلى الإنكار . وذهب ليطلب جسدى من الرب ليستطيع أن يضربنى . فسلمنى الرب عندها ليديه لكى يستطيع أن يفعل بجسمى كما يحلوا له ، لكنه لم يعطه السلطة على روحى . فاقترب منى ، فى حين كنت جالساً على عرشى وكنت أبكى خسارة أبنائى . وكان شبيها بإعصار . فقلب عرشى وأبقانى ثلاث ساعات تحت عرشى دون أن أستطيع الخروج . وضربنى بداء بشع من قدمى إلى رأسى . فخرجت من المدينة وأنا مضطرب وقلق وجلست على الزبل ، وكانت الديدان تأكل جسمى وكان عرقى يبل الأرض، وكان القيح يسيل من جسمى والديدان تعج فيه . وإذا خرجت دودة كنت آخذها وأعيدها إلى حيث كانت قائلاً : « ابقى فى المكان الذى كنت فيه حتى تكونى قد تلقيت أمراً من الذى يأمرك »

أيوب على الزِّبل

وأمضيت ثمانية وأربعين عاماً على الزبل ، خارج المدينة ، مغطى بالجروح ورأيت . يا أبنائى بعينى ، امرأتى الأولى تحمل الماء إلى بعض الوجهاء مثل خادمة، حتى تحصل على خبز وتأتينى به . وكنت أقول والألم يتملكنى : « أى بطر لقادة هذه المدينة ! هل من الممكن أن يستخدموا زوجى مثل خادمه !» . وبعد ذلك كنت أعود إلى تأملى الصابر .

شقاء امرأة أيوب

وبعد أحد عشر عاماً حرموها حتى من الخبز لكى لا تستطيع أن تأتينى به ،

آمرين أن تعطى على الأكثر غذاءها الخاص . فكانت تأخذه وتقسمه بينها وبينى وتقول بألم : ويل لى ، فقريباً لن يحصل على الخبز ليأكل.» . ولم تتردد فى الذهاب إلى السوق لتتسول الخبز من بائعى الخبز لتتمكن من جلب شئ منه لتطعمنى.

وعندما علم ساتان بذلك تنكر فى هيئة بائع . وحصل أن امرأتى ذهبت إليه صدفة لتطلب منه خبزاً وهى تعتقد أنه بشر . فقال لها ساتان : « ادفعى الثمن وخذى ما تشائين » فأجابته : « من أين لى المال ؟ هل تجهل المصائب التى حصلت لنا؟ . فإذا أشفقت فأظهر ذلك ، وإلا فسوف ترى !» . فأجابها : « لو لم تستحقوا هذه البلايا ما كنتم تلقيتموها . والآن إذاً ، إذا لم تكونى تملكين مالاً فأعطينى بالمقابل شعر رأسك وخذى ثلاثة خبزات ، فربما أمكنكما أن تعيشا ثلاثة أيام ». عندها قالت فى نفسها: « ما نفع شعر رأسى بالنسبة لى وزوجى جائع » . وإذ قللت هكذا من شأن شعرها قالت له : « انهض وخذه » عندها أمسك بمقص وقص شعر رأسها وأعطاها ثلاث خبزات على مرأى من الجميع . فأخذتها وجلبتها لى ورافقها ساتان فى الطريق ، ماشيا حيث لا يُرى ومضلاً قلبها .

وعندما اقتربت صرخت زوجى وهى باكية : « أيوب ، أيوب، إلى متى ستبقى جالساً على الزبل خارج المدينة وأنت تقول : لم يبقى سوى القليل، منتظراً رجاء خلاصك ، فى حين أننى أطوف من مكان إلى مكان متشردة وخادمة بالأجرة؛ لأن ذكراك امّحى من الأرض : أبنائى وبناتى الذين حملتهم فى أحشائى والذين من أجلهم استنفذت نفسى فى التعب والنصب سدى . وأنت تجلس فى القذارة ممضياً ليلك تحت النجوم ، بينما أنا ويا لى من شقية، أعمل نهاراً وأتألم ليلاً لأحصل على الخبز وآتيك به . لأننى لم أعد أتلق الآن سوى طعامى على الأكثر وأنا أتقاسمه بينى وبينك ، قائلة فى قلبى : ألا يكفى أنك تتألم فهل يجب ألا تستطيع أكل الخبز عندما تجوع ؟ حتى أننى تجرأت فمضيت إلى السوق دون ما خجل ، وعندما قال لى

البائع: أعطنى المال وخذى ما تريدين . شرحت له فقرنا وسمعت من فمه : أيتها المرأة ، إذا لم يكن لديك المال فقدمى شعر رأسك وخذى ثلاثة خبزات فربما أمكنكما أن تعيشا ثلاثة أيام . فقلت له وقد استولى اليأس على : انهض واحلق لى فقام وقص لى بالمقص بسفالة شعرى فى الساحة وأمام الجمهور المندهش .

فمن لم يصبه الذهول ولم يقل : أليست سيتيس امرأة أيوب ، هى التى كانت تحمى رواقها بأربعة عشر سجف وبأبواب متتالية بحيث يكون الذى يستطيع الوصول إليها مبجلاً جداً . هى التى تبادل الآن شعرها مقابل الخبز ؟

« هى التى كانت جمالها محملة بالخيرات ، والتى كانت ترسلها إلى الفقراء فى النواحى ، تقايض الآن ضفيرتها بالخبز .

« وانظر ، هى التى كان لديها سبع موائد ممدوة دائماً فى بيتها والتى كان يأكل منها الفقراء وجميع بالغرباء ، تبيع الآن شعرها مقابل الخبز.

« وانظر ، هى التى كان لديها إناء من ذهب وفضة لتغسل قدميها ، تمشى الآن وقدماها حافيتان على الأرض وتمضى حتى مبادلة شعرها بالخبز.

« وانظر ، التى كانت تلبس الكتان المنسوج بالذهب ، ترتدى الآن أسمالاً وتذهب لتبادل شعرها بالخبز .

« وانظر ، التى كان لديها أسرّة من ذهب وفضة والتى تبيع الآن ضفيرتها مقابل الخبز .

« وباختصار يا أيوب ، يا أيوب ، بعد كل ما قيل ، سأقول لك بكلمة واحدة : لقد سُحقت عظامى من ضعف قلبى ، فانهض وخذ هذا الخبز واشبع ، ثم قل كلمة للرب ، ومت ، وسأتحرر من الحزن الذى يسببه لى ألم جسمك »

فأجبتها : « ها أننى أمضيت سبعة عشر عاماً مغطى بالجروح ومحتملاً الديدان التى فى جسمى ، ولم تضنى روحى بالألم كما يضنيها ما تقولينه : قل كلمة للرب

ومت . إننى أحتمل تماماً هذا كله وأنت تحتملين خسارة أبنائنا وخيراتنا وتريدين أن نقول كلمة للرب ونصبح غرباء عن هذا الغنى العظيم ؟ . لماذا لا تتذكرين الخيرات الكثيرة التى كنا نتمتع بها ؟ فقد حصلنا من يد الرب إذاً على أشياء حسنة أفلا نصبر على السيئة ؟ فلنصبر إذاً حتى يرحمنا الرب إذا ما أشفق علينا . ألا ترين الشيطان يقف وراءك ويعكر أفكارك ، لكى تشوشيننى أنا أيضاً ، لأنه يريد أن يظهرك مثل امرأة حمقاء من اللواتى حرفن بساطة أزواجهن . »

ساتان يترك أيوب

والتفتُّ من جديد إلى ساتان وقلت له بينما كان يقف وراء زوجى: « تقدم وكف عن الاختباء هل يُظهر الأسد قوته فى قفص ؟ وهل يحلق الطير فى سلة ؟ فاخرج وقاتلنى ! عندها كف عن الاختباء خلف امرأتى ، وقال وهو يبكى واقفاً : « حسناً يا أيوب ، لقد خسرتُ وإننى منسحب أمامك ، أنت الذى من جسد وأنا الروح . أنت فى الشقاء وأنا فى حيرة كبيرة . لأننى كنت مثل مصارع يعارك مصارعاً : أحدهما يقلب الآخر ؛ الذى هو فوق يُسكت الذى هو تحت بملء فمه بالرمل . وبتكتيف أعضائه كلها ؛ وبينما الذى هو تحت يُظهر شجاعته ولا يستسلم، فسرعان ما يطلق الذى هو فوق صرخات كبيرة . وبالمثل فأنت أيضاً يا أيوب ، كنت تحت وفىُ بالشقاء ، لكنك انتصرت فى المعارك التى خضتها ضدك » . وعندها تركنى ساتان وهو مشوش لمدة ثلاثة أعوام . والآن إذاً يا أبنائى ، برهنوا على الصبر أنتم أيضاً فى كل ما يحصل لكم لأن الصبر ينتصر على كل شئ .

ثلاثة ملوك يأتون إلى أيوب

ولما أتممت عشرين سنة فى الشقاء . علم الملوك بما جرى لى فقاموا وأتوا إلىّ . كل من بلده ، من أجل زيارتى ومساندتى . وعندما اقتربوا منى وهم قادمون من بعيد لم يعرفونى . فأخذوا يصرخون ويبكون . ومزقوا ثيابهم ، ونثروا التراب على رأسهم . وظلوا جالسين قربى سبعة أيام وسبع ليالى ،ولم يكلمنى أحد منهم ، ولم

يكن بقاؤهم صامتين من أجل البرهان على صبرهم ، بل لأنهم كانوا قد عرفونى قبل هذه البلايا فى ثراء عظيم ، ذلك عندما كنت قد بدأت أريهم الحجارة الثمينة فصفقوا أيديهم وهم مندهشين وقالوا : « إذا اجتمعت خيرات ممالكنا الثلاث فى كتلة واحدة وفى الموضع نفسه فإنها لا تقارن بحجارة ملكنا الثمينة » . إننى كنت أكثر المشرقيين نبلاً . وعندما جاؤوا إلى بلد أوسيتيس سألوا فى المدينة : « أين هو يوباب الذى يسود على مصر كلها ؟ » فقيل لهم : « إنه جالس على الزبل خارج المدينة . وهو فى الواقع يصعد إلى المدينة منذ عشرين سنة » . فقلقوا أيضاً على خيراتى وأعلموهم بما كان قد حصل لى .

ولدى سماع هذا الخبر خرجوا من المدينة مع مواطنى . ودلهم هؤلاء على ، لكنهم أشاروا بإشارات إنكار مؤكدين بأننى لم أكن يوباب وباختصار ، وبينما كانوا لا يزالون مترددين استدار إليفاز ملك تمان إلى وقال لى :« هل أنت يوباب الذى كان ملكا مثلنا ؟» فنثرت وأنا أبكى التراب على رأسى ورفعت رأسى وأعلمتهم بأننى حقاً أنا .

ولما رأونى أرفع رأسى وقعوا على الأرض وهم يبكون . واضطربت فرقهم لدى رؤية الملوك الثلاثة الذين ظلوا ملقيين على الأرض ثلاث ساعات مثل جثث . ثم قاموا وقالوا فيما بينهم : « لا نستطيع أن نصدق بأنه هو» ثم جلسوا طيلة سبعة أيام وهم يتأملون ما يتعلق بى ، ويخمنون ماشيتى وخيراتى قائلين : « ألسنا نعرف كافة الخيرات التى كان يرسلها إلى القرى والمدن المحيطة من أجل توزيعها على الفقراء ، هذا دون أن نعد ما كان يُعطى بغزارة فى بيته فكيف وقع إذاً الآن فى هذه الحالة الرمية والجثية ؟ »

وتناقشوا هكذا مدة سبعة أيام ، وبعدها استلم الكلام إليهو وقال للملكين الآخرين : « لنقترب منه ونفحصه بعناية إذا كان هو حقاً أم لا .» وكان هؤلاء يقفون على بعد نحو نصف غلوه بسبب نتانة جسمى ، فقاموا واقتربوا منى وهم

يحملون بأيديهم العطور ؛ وكان يرافقهم جنودهم الذين كانوا يحرقون البخور من حولى لكى يستطيعون الاقتراب منى . وأمضوا ثلاثة أيام فى رش العطور . وعندما أصبحوا قريبين منى عاد إليهو للكلام وقال : « هل أنت يوباب الذى كان ملكا مثلنا؟ هل أنت الذى كان مجده عظيماً جداً فى الماضى ؟ هل أنت هذا الرجل المماثل للشمس التى تسطع على الأرض كلها فى النهار ؟ هل أنت هذا الرجل المماثل للقمر وللنجوم التى تظهر وسط الليل؟» فأجبته : «هذا أنا» عندها انفجر منتحباً وصدر عنه غناء حزين يليق بملك ، وكان الملكان الآخران وحراسهما يرددان لازمته .

مرثية إليهو

اسمعوا إذاً مرثية إليهو الذى بين لخدمه ثراء أيوب .

« هل أنت الذى خصص السبعة آلاف نعجة هذه لإكساء الفقراء ؟

فأين هو إذاً مجد عرشك ؟

وهل أنت الذى خصص الثلاثة آلاف بعير هذه لنقل الخيرات إلى المعوذين ؟

فأين هو إذاً مجد عرشك ؟

وهل أنت الذى خصص هذه الثيران الألف للحراثة من أجل المحتاجين ؟

فأين هو إذاً مجد عرشك ؟

هل أنت الذى كانت أسرّته من ذهب ،

أنت الجالس الآن على الزبل؟

فأين هو الآن مجد عرشك ؟

وهل أنت الذى كان له العرش من الحجارة الثمينة ،

أنت الجالس الآن فى التراب؟

فأين هو الآن مجد عرشك ؟

لأنه من كان مثلك وسط أبنائك ؟

كنت مثل شجرة تعطى ثمرة عطرة،

فأين هو الآن مجد عرشك ؟

هل أنت الذى نصب هذه الموائد الستين التى مُدت من أجل الفقراء؟

فأين هو الآن مجد عرشك ؟

هل أنت الذى كانت لديه هذه المباخر لتعطير المجمع،

أنت القاعد الآن فى النتانة ؟

وهل أنت الذى كان يملك هذه المصابيح الذهبية على هذه الشمعدانات الفضية،

أنت الذى ينتظر الآن ضوء القمر ؟

فأين هو إذاً مجد عرشك ؟

هل أنت الذى كان لديه هذا المرهم من شجرة اللبان ،

أنت القابع الآن فى الفاقة ؟ فأين هو إذاً مجد عرشك ؟

هل أنت الذى كان يسخر من الظالمين والخاطئين ،

أنت الذى أصبحت اليوم هدفاً للسخرية ؟

فأين هو الآن مجد عرشك ؟

هل أنت أيوب الذى كان له هذا المجد العظيم ؟

فأين هو الآن مجد عرشك ؟

يوح أيوب

وتابع إليهو مرثاته وكان الملكان الآخران يردان عليه بلازمتهما حتى أنهم حرضوا اضطراباً كبيراً . وعندما انتهى هذا الصخب قال لهم أيوب :

« اصمتوا !

سوف أريكم عرشى

ومجد بهائه .

عرشى فى العالم العلوى

ومجده وبهاؤه

على يمين الآب .

العالم كله سيمضى

ومجده سيذبل ،

والذين يتعلقون به

سيشاركون فى سقوطه .

أما عرشى فهو فى أرض مقدسة

ومجده فى عالم لن يتبدل .

الأنهار سوف تجف

وغطرسة أمواجها

ستنزل إلى أعماق اللجة .

لكن أنهار أرضى ،

حيث يوجد عرشى ،

لن تجف

ولن تختفى ،

بل ستبقى إلى الأبد.

هؤلاء الملوك سيمضون

والقادة سيمرون ،

ومجدهم وزهوهم

سيصبحان مثل صورة مرآة .

لكن ملكى سيبقى إلى الأبد

ومجده وبهاؤه

هما فى مركبات الآب . »

نقاش أيوب وأصدقاءه

ولما كنت أقدم هذه الأقوال لأسكتهم ، امتلأ إليفاز بالغضب وقال للصديقين الآخرين : « ما الذى ينفع أن نوجد هكذا مع حراسنا من أجل دعمه ؟ . فها أنه يؤنبنا ! فلنعد كل إلى بلده ! . إنه جالس فى البؤس الذى تسببه له الديدان والعفونة وهو مع ذلك يقف ضدنا ويقول : « الملوك يمرون كما وسلطاتهم ، أما ملكى فيقول لنا إنه يبقى إلى الأبد » . وقام إليفاز وهو مضطرب كثيراً وانحنى أمامهم وأعلن وهو متكدر جداً : « إننى ذاهب ، لأننا أتينا من أجل دعمه ، وبهذه المناسبة فإنه يرفتنا أمام جنودنا . »

فأمسكه بلداد عندها : « ليس هكذا يجب أن نكلم رجلاً يبكى وهو إصابته

إلى ذلك مصاب ببلايا كثيرة . وها أننا نحن بكامل صحتنا لا نستطيع الاقتراب منه بسبب عفونته إلا مع كميات من العطور . وأنت تنسى يا أليفاز تماماً ما كان حال روحك عندما مرضت ليومين . فلنصبر إذاً الآن ، حتى نعلم ما هى حججه . هل فقد العقل ؟ وهل يتذكر سعادته فى الماضى ؟ وهل استحوذ الجنون على نفسه ؟ فمن لا يصاب بالرعب والجنون إذا وجد نفسه فى مثل هذه البلايا ؟. فاتركونى أقترب منه لكى أعرف ما هى حججه »

وعندها قام بلداد واقترب منى وقال : « هل أنت أيوب ؟ » فقلت له : «بلى » . فقال لى : « هل قلبك فى وضعه الطبيعى ؟ » . فأجبته : « قلبى ليس متعلقاً بالأشياء الأرضية ، لأن الأرض مهزوزة كما والذين يسكنونها؛ بل إن قلبى متعلق بالأشياء السماوية ، لأنه ليس ثمة فوضى فى السماء » . فتابع بلداد الكلام وقال « نعرف أن الأرض مهتزة، طالما أنها تتغير مع الوقت ؛ فهى تتابع حيناً مجراها، وحيناً تحيا بسلام ، وحيناً تكون فى حرب . أما بالنسبة للسماء فنسمع أنها ساكنة ، ولكن إذا كنت حقاً فى وضعك الطبيعى فسأسألك سؤالاً . فإذا أجبت على السؤال الأول بشكل عاقل فسأطرح عليك سؤالاً ثانياً ؛ فإذا أجبتنى بشكل هادىء فمن المؤكد أننا سنتعرف بأنك لم تفقد العقل . »

وقال لى أيضاً : « بمن تأمل ؟ » فأجبت : « بالله الحى . » وقال لى أيضاً: « من أخذ منك خيراتك أو من أصابك بهذه الضربات ؟ » . فأجبته: «إنه الله» فتابع الكلام أيضاً وقال لى : « أتأمل بالله ؟ فكيف إذاً أصابك بهذه الضربات وسلبك خيراتك ؟ . فإذا كان قد أعطى وإذا كان قد أخذ فكان يجب ألا يعطيك شيئاً أصلاً. فالملك لا يفضح أبداً حافظ جسمه طالما أن هذا الأخير حماه جيداً . فأجبنى يا أيوب حول ذلك.» وأجبت: « من ذا يفهم أعماق الرب وحكمته أو من يجرؤ على نسب ظلم للرب ؟ » . فقال لى أيضاً : « إذا كنت فى وضعك العادى ، فأعلمنى إذا كان يوجد فيك حكمة، لماذا نرى الشمس تشرق من الشرق وتغرب فى

الغرب ؟ ولماذا عندما نستيقظ عند الفجر نجدها من جديد تشرق من الشرق ؟ فسّر لى ذلك إذا كنت خادم الله ! »

فأجبت حول ذلك : « ثمة حكمة فىّ ، قلبى متماسك . فلماذا لا أتحدث إذاً عن روائع الرب ، أم يجب أن يصدم فمى الرب كلياً ؟ بالتأكيد لا ! فمن نحن حتى نتعاطى بالأمور السماوية ، فى حين أننا بشريون وأن مرجعنا إلى الأرض والتراب ؟ . فحتى تعلموا أن قلبى متماسك فاسمعوا السؤال الذى أطرحه عليكم : إن الغذاء يدخل عبر الفم ،وبدوره فإن الماء يُشرب بواسطة الفم نفسه ويمر عبر المسلك نفسه ، ولكن عندما ينزل كل منهما فى حفرة المرحاض فإنهما ينفصلان عندها عن بعضهما . فمن إذاً الذى يقوم بهذا الفصل ؟ » فأجاب بلداد : « أجهل ذلك ». فتابعت الكلام وقلت له: « إذا كنت لا تفهم مسارات الجسم فكيف ستفهم الأمور السماوية ؟ » . فاستلم صوفار الكلام بدوره وقال : « لا نحاول أن نعرف ما هو فوقنا ، بل نريد أن نعرف إذا كنت فى وضعك الطبيعى ، وها أننا قد فهمنا أن ذكاءك لم يلجم . فماذا تريد أن نصنع إذاً من أجلك ؟ فها إن أطباء ممالكنا الثلاثة جاؤوا معنا . هل ترغب أن يعالجوك فربما تجد الراحة ؟ » فأجبت بهذه الكلمات: «إن شفائى وعلاجى من الرب الذى خلق أيضاً الأطباء »

ظهور سيتيس بالأسمال

وإذ كنت أقول لهم هذا القول وصلت زوجى سيتيس وهى مغطاة بالأسمال . وكانت قد هربت من عبودية السيد الذى كانت تخدم عنده ، عندما منعها من الخروج لأنه كان يخشى أن يراها الملوك الآخرون فيخطفونها . وعندما وصلت ارتمت على أقدامهم وقالت باكية : « أنت يا إليفاز ، ومعك صديقيك ، اذكرونى عندما كنت برفقتكم وكيف كنت مكسوة . وانظروا كيف أخرج وماذا أرتدى » . عندها صدر عنهم أنين عظيم، ولزموا الصمت إذ أصابهم حزن مضاعف . وإذ كان إليفاز يرفع معطفه من البرفير ليمزقه ويلبسه لامرأتى . توسلت إليه قائلة : « أرجوك أن

تأمر جندك بأن ينبشوا خرائب بيتى الذى انهار على بلادى . لكى تُحفظ عظامهم بأمان فى قبر، إذ أننا لم نستطع فعل ذلك بسبب الفقر ؛ فلنر على الأقل عظامهم! فهل أنا حيوان متوحش أم أن بطنى شبيه ببطن الماشية حتى لا أدفن أيا من أبنائى العشرة الذين فقدتهم ؟» . وإذ هموا بالذهاب لنبش الخرائب منعتهم من ذلك قائلا: « لا تتعبوا فى ذلك سدى ، لأنكم لن تجدوا أبنائى ، لأنهم رفعوا إلى السموات من خالقهم الملك . فعادوا عندها للكلام وقالوا لى :« من ذا الذى لا يقول الآن إنك فقدت العقل وإنك مجنون؟ فأنت تقول : « أبنائى رفعوا إلى السماء » فاكشف لنا الحقيقة إذاً !»

موت سيتيس

فتابعت الكلام وقلت لهم :« انهضونى حتى أستطيع الوقوف » فأنهضونى ممسكين بذراعى من كل جهة . وما أن وقفت حتى وجهت اعترافا إلى الآب . وبعد الصلاة قلت لهم : « ارفعوا عيونكم إلى الشرق وانظروا أبنائى متوجين بمجد الله السماوى » . ولدى هذه الرؤية وقعت امرأتى سيتيس أرضا على ركبتيها وقالت : «الآن أعرف أن الرب يذكرنى . فسأنهض إذاً وأدخل إلى هذه المدينة ، وسأغلق للحظة عينى وسوف أحيا مقابل الخدمات التى كنت قد أديتها كخادمة » . ومضت إلى المدينة ودخلت إلى زريبة الثيران التى أخذها منها القادة التى كانت خادمة عندهم. ورقدت قرب مزود وماتت مطمئنة . ولما كان سيدها المستبد يفتش عنها ولا يجدها . دخل عندما حان المساء إلى زريبة الحيوانات ووجدها ممدة ميتة . ولدى هذا المشهد ناحت الحيوانات كلها عليها وهى تخور وسُمع صوتها عبر المدينة كلها . عندها انطلق الناس ليعرفوا ما الذى حصل ، ووجدوها ميتة ومحاطة بالحيوانات التى كانت تبكى عليها . فنقلوها هكذا متممين واجباتها الأخيرة فدفنوها قرب البيت الذى كان قد سقط على أبنائها . وانتشر فقراء المدينة وهم ينوحون قائلين : « انظروا إلى سيتيس هذه ، هذه المرأة التى كانت معظمة وممجدة . لم يُقضَ بأنها تستحق المدفن اللائق . ١٤ أما بالنسبة للغناء المأتمى عليها فإنكم تجدونه فى المراثى .

حديث إليهو

بعد ذلك جلس إليفاز والآخرون تباحثوا قائلين كلاماً كبيراً ضدى : وبعد سبعة وعشرين يوماً قاموا وأرادوا العودة إلى بلادهم . فرجاهم إليهو بهذه الكلمات: انتظرونى ، حتى أعبر له عن شعورى ، لأنكم أمضيتم هذه الأيام وأنتم تحتملون تباهى أيوب بصلاحه ، أما أنا فلن أحتمله، لأنه منذ البداية قد رثيت له متذكراً سعادته الماضية . وها أنهّ كلمنا بطريقة متعالية وبصفاقة ، قائلا: إن عرشه فى السموات . والآن ، اسمعون إذاً وسأبين لكم أن ذلك ليس مصيره . وعندما وجه لى إليهو بإلهام من ساتان كلاماً سفيهاً ٦ هو مدون فى مرائي إليفاز .

إدانة إليهو

ولما أنهى إليهو كلامه الكبير ، ظهر لى الرب عبر عاصفة وغمام وكلمنى؛ وأدان إليهو مبيناً لى أن الذى تكلم من خلاله لم يكن بشراً بل حيواناً متوحشا . وبينما كان الرب يكلمنى عبر الغمام ، كان الملوك الأربعة يسمعون أيضا صوت الذى كان يتكلم . وعندما أنهى الرب كلامه لى قال لإليفاز : ٥ « لقد أخطأتم ، أنت وصديقاك ؛ لأنكم لم تقولوا الحقيقة فى كلامكم عن عبدى أيوب . ولهذا قوموا واعملوا على أن يقدم الأضاحى من أجلكم ، بحيث تُنزع خطيئتكم ، لأنها إذا لم تقدم عن طريقه ، فإنها ستكون بكم أنتم » . فجلبوا لى ما كان ضروريا للذبيحة . فأخذته وقدمته من أجلهم فقبل الرب هذه الأضحية وغفر لهم خطيئتهم .

نشيد إليفاز

عندها فهم إليفاز وبلداد وصوفار أن الرب كان قد غفر لهم خطيئتهم لكنه لم يجد إليهو مستحقا للمغفرة . وتلقى إليفار الروح وقال نشيداً ، بينما كان صديقاه الآخران الحراس يعيدون فى جوقة قرب المذبح . وتكلم إليفاز هكذا :

« مرفوعة هى خطايانا ،

ومدفون إثمنا .

إليهو ، إليهو ، الشرير الوحيد ،
لن يترك ذكرى بين الأحياء .
فإذا ما انطفأ مصباحه فقد نوره
وسطوع مشعله سيرتد لإدانته .
لأنه ابن الظلمات ،
وليس ابن النور ،
وسيرث بوابو الظلمات
مجده وبهاءه .
ملكه مضى ،
وعرضه نخر ،
خيمته الثمينة فى الهديس .
لقد أحب حلاوة الحية ،
وحراشف التنين ،
وسيصبح حقده وسمه طعامه .
فهو لم يجل الرب ،
ولم يخافه ،
بل أغضب الذين يعتمد عليهم.
لقد نسيه الرب .
وهجره القديسون .
الغضب والحنق سينذرانه للعدم .
فليس لديه شفقة فى قلبه ،
ولا سلام فى فمه
كان سم الأفعى على لسانه ،

عادل هو الرب ،

وصحيحة فى أحكامه .

ليس ثمة عنده محاباة .

وسيحاكمنا جميعا بالمثل .

فها أن الرب قد تجلى .

وها أن القديسين قد تحضروا ،

والتيجان والتسابيح قد سبقتهم .

فليغتبط القديسون ،

وليتهللوا فى قلبهم ،

لأنهم تلقوا المجد الذى كانوا ينتظرون .

منزوعة خطيئتنا ،

ومطهر إثمنا ،

أما إليهو فلن يترك ذكرى بين الأحياء »

خيرات أيوب ترد له مضاعفة

وبعد أن أنهى إليفاز نشيده ، وردد معه جميع الذين كانوا يحيطون بالمذبح قمنا ودخلنا إلى المدينة إلى البيت الذى نسكنه الآن ، ومددنا وليمة كبيرة فى فرح الرب ومن جديد بدأت أسعى لخدمة الفقراء ، فعاد جميع أصدقائى إلى ، وجميع الذين كانوا يعرفوننى محباً لعمل الخير ، وسألونى قائلين : ماذا تطلب منا الآن ؟ وإذ تذكرت أنا الفقراء طلبت من جديد أن أعمل الخير وقلت : « ليعطينى كل منكم رخلة[1] من أجل إكساء الفقراء العراة . » وجلب لى عندها كل منهم رخلة وقطعة ذهبية من أربع دراخمات . وبارك الرب كل ما كنت أملك وأعاد لى خيراتى مضاعفة .

(١) رخلة : أى أنثى الحمل .

العظات الأخيرة لأيوب

والآن ، يا أبنائى ، ها أننى أموت . فأمر واحد : لا تنسوا الرب ؛ اعملوا الخير للفقراء ؛ ولا تحتقروا المعوزين ؛ ولا تتخذوا الأجنبيات زوجات لكم . وها أننى أقسم بينكم كل ما أملك بحيث يملك كل منكم حصته بشكل مستقل .

أيوب يعطى لكل من بناته حبلة سحرية

وجلبوا الخيرات لقسمتها بين الأبناء الذكور السبعة ، لأن شيئاً من هذه الثروات لم يكن يخص البنات . فحزنّ وقلن لأبيهن : « يا سيد، يا أبونا، ألسنا نحن أيضاً أبناؤك ؟ فلماذالم تعطنا شيئاً من خيراتك التى كانت تخصك ؟ » . فقال أيوب لبناته : « لا تقلقن ، يا بناتى ، لأننى لم أنساكن . فقد أرسلت لكم ميراثاً أفضل من ميراث إخوتكم السبعة » . وعندها نادى ابنته المسماة حمرا وقال لها : «خذى المفتاح واذهبى إلى المخبأ واجلبى لى الآنية الذهبية الصغيرة الثلاث لكى أعطيكن الميراث» فذهبت وأحضرتها له . ففتحها وسحب منها الحبلات الثلاث المتعددة الألوان ، بحيث لم يكن باستطاعة أى إنسان أن يتحدث عن مظهرها ، لأنها لم تكن من الأرض بل من السماء ؛ وكانت تطلق شرارات من نار مثل أشعة شمسية . وأعطى حبلة لكل منهن قائلاً : « ضعنها حول صدوركن لكى تصنع لكن الخيرطيلة أيام حياتكن »

لكن البنت الأخرى التى كانت تدعى كاسيا قالت له : « يا أبى ، فهل هذا هو إذاً الميراث الذى قلت لنا عنه إنه أفضل من ميراث إخوتنا؟ فماذا تنفع إذاً هذه الحبلات غير المجدية ؟ هل ستعطينا ما نعيش به ؟ » . فقال لهن والدهن : « لن تعطيكن فقط ما تعشن به ، بل ستدخلكن إلى عالم أفضل لتعشن فى السماوات . فهل تجهلن إذاً يا بناتى قيمة هذه الحبلات ؟ لقد رأى الرب أننى أهل لها فى اليوم الذى أراد فيه أن يرحمنى ويبعد عن جسمى البلايا والديدان . فنادانى وقدم لى الحبلات الثلاث قائلاً: « انهض وشد حقويك مثل رجل ! سأسألك وأنت أجبنى !»

فأخذتها وتزنرت وسرعان ما اختفت الديدان من جسمى كما والبلايا . ثم استعاد جسمى قوته بفضل الرب كما و أننى لم أعانى من شىء أبداً . بل إننى نسيت فى قلبى آلامى . وكلمنى الرب بمقدرة وبين لى الماضى والمستقبل . والآن إذاً . يا بناتى، فطالما كانت هذه الحبلات معكن لن يستطيع العدو مهاجمتكن فى شىء ، ولا حتى فى أفكار عقلكن . لأنها تعويذة من الآب . فانتصبن واشددن أنفسكن بها، قبل أن أموت ، حتى تتمكن من مشاهدة الذين سيأتون إلى روحى فترين مخلوقات الله .

فقامت عندها التى كان اسمها حمرا ووضعت حولها حبلة كما قال لها أبوها . فحصلت على قلب آخر بحيث أن أفكارها لم تعد أفكاراً أرضية . فغنت فى اللغة الملائكية ؛ وأصعدت نشيداً إلى الله بحسب الإنشاد الملائكى . وسمح الروح بأن تنقش الأناشيد التى غنتها على مذبحها .

وعندها تزنرت كاسيا وحصلت على قلب متحول ، بحيث لم تعد تحب أشياء هذا العالم . وتلقى فمها لغة الأمراء فمجدت عمل المكان العلوى . فإذا أراد أحد معرفة عمل السماوات فيمكنه أن يجده فى أناشيد كاسيا .

وعندها تزنرت البنت الأخرى بدورها ، التى كانت تسمى قرن أمالثيا ، وراح فمها يغنى بلغة الذين يسكنون فى الأعالى ، طالما أن قلبها أيضاً قد تغير وانتُزع من أمور هذا العالم . فتكلمت فى الواقع بلغة الشيروبيين ، ومجدت رب الفضائل وعرضت مجدهم . فمن أراد أن يحصل على أثر أخير من يوم مجد(١) الآب سيجده مدوناً فى صلوات قرن أمالثيا .

وبعد أن كفت الأخوات الثلاث عن إنشاد الأناشيد ، إذ حركنى الرب ، أنا نيروس ، أخو أيوب والذى حركنى أيضاً الروح القدس ، فجلست قرب أيوب على

---

(١) يوم مجد الآب : هى الأيام التى سيظهر فيها النبى المنتظر .

سريرى وسمعت الروائع التى كانت إحدى الأخوات تفسرها للأخرى . فغطيت كتاباً كاملاً بالجزء الأكبر من شروحات الأناشيد ، فى حين كنت إلى جانب بنات أخى الثلاث ، بمثابة سلام ، لأنها روائع الله.

صعود أيوب

وبعد ثلاثة أيام نام أيوب وهو مريض من جديد ، إنما دون أن يعانى من الوجع أو الألم ، طالما أن العذاب لم يعد يمكن أن يصيبه بسبب علامة الزنّار الذى كان متزنراً به . وبعد ثلاثة أيام رأى الذين كانوا يأتون إلى روحه . فقام للفور وأخذ كنارة وأعطاها لابنته حمرا . وأعطى لكاسيا مبخرة ولقرن أمالثيا أعطى طبلة ، بحيث يباركن الذين كانوا يأتون من أجل روحه . فأخذنها ورأين المركبات المضيئة التى كانت تأتى إلى روحه . فباركن ومجدن كل منهن بلغتها العجيبة . وبعد ذلك خرج الذى كان جالساً على المركبة الكبيرة وحيا أيوب . وكانت البنات الثلاث يرين مع أبيهن ؛ ولم يكن الباقون يرون شيئاً . وأخذ الروح وطار وهو يحملها بين ذراعيه، وأصعدها إلى المركبة واتجه نحو الشرق . أما جسمه المغطى فحُمل إلى الأض ، تسبقه بناته الثلاث اللواتى كن قد تزنرن بحبلاتهن ورحن يغنين أناشيد الآب .

رثاء نيروس

وأنا نيروس أخوه بكيت مع أولاده الذكور السبعة ، ومع المعوزين واليتامى وجميع ذوى العاهات الذين بكوا . وقالوا : « ويل لنا اليوم، ويل لنا مرتين ، لأنه اليوم

« قد انتُزعت قوة ذوى العاهات ،

وانتزع نور العميان ،

وانتُزع والد اليتامى ،

وانتُزع مضيف الغرباء ،

وانتُزِع ثوب الأرامل .»

فمن من لم يبك فى النهاية على رجل الله هذا ؟ وحملوا معاً الجسم إلى قرب القبر وأحاط به جميع الأرامل واليتامى ، مانعين وضعه فى القبر . وبعد ثلاثة أيام وُضع فى القبر فى رقاده الأخير ، متلقياً اسماً مجيداً على مدى أجيال الدهر . آمين .

[تم كتاب أيوب ، المكتشف فى قمران]

تم كتاب قصة أيوب فى التوراة

والإنجيل والقرآن . ولله الحمد